

من السماء

أحمد زكي أبو شادي

من السماء

من السماء

تأليف
أحمد زكي أبو شادي



من السماء

أحمد زكي أبو شادي

رقم إيداع ٢٠١٣ / ١٣٣٥٩
تدمك: ٣ ٣٢٨ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات

تمهيد

تضم الصفحات التالية معظم شعري ما بين سنة ١٩٤٢م، وسنة ١٩٤٩م، وقد ضاع جانب من مخطوطه في خلال نقلتي من مصر إلى أمريكا سنة ١٩٤٦م وفيما انتابتها من محنٍ، كما ضاع بعض الصور الفنية وفي مقدمتها «رحلة الزمان» و«خلائق اليوم»، ولكن في هذه النماذج الميسورة ما يكفي تمثيلًا لشعوري ولخواطري في أثناء هذه السنين، ولمبلغ تفاعلي النفساني مع الأوساط التي عشت فيها. ولعل بها ما يُرضي مطالب الناقد الأدبي وقراء الشعر الحديث.

ويطيب لي في هذه المناسبة أنْ أهدي خالص الشكر إلى لجنة النشر التي تكفلت بإصدار هذا الديوان وأكرمت في شخص صاحبه ما عددته إكرامًا للشعر العصري ورواده، لا إكرامًا لشخصي وأدبي فحسب. كذلك يطيب لي أن أشكر لدار (الهدى) عنايتها الفائقة بطبعه وإخراجه في هذا المظهر الفني القشيب.

أحمد زكي أبو شادي

نيويورك

التجربة الشعرية

بقلم صاحب الديوان

للشعر مقومات تتنوع في تركيبها ولكن لا ينفرد أيُّها به. وأولى مقومات الشعر الصادق التجربة الشعرية؛ أي تأثر الشاعر بعامل معين أو بأكثر واستجابته إليه أو إليها استجابة انفعالية قد يكتنفها التفكير وقد لا يكتنفها، ولكن لا تتخلى العاطفة أبدًا عنها، إذ إنهما حينما تبتعدان يتجرد الشعر من أبدع صفاته الأصيلة ويصبح نظمًا خلابًا على أفضل تقدير، أو ينعت «بشعر الذكاء» تجاوزًا. والنماذج لذلك كثيرة غالبة، ومهمة النقد الفني تثبيطها بل استئصالها. وحينما يُصبح الشعر موضوعيًّا فإنَّ الشاعر القدير في قصته أو في ملحمته يتمثل العواطف لشخصيات روايته ويخلعها عليها كما يصنع الممثل على المسرح، أو يُعبر عن إحساسه ضمن الموضوع الذي يُعالجه.

والتجربة الشعرية قد تكون عظيمة كما قد تكون تافهة في ظاهرها، ولكنَّ الشاعر الكبير قادر بتأثره وتفاعله على إبداع الجليل من التافه؛ لأنَّه يراه بمرآة نفسه الكبيرة التي كيفتها عوامل شتى ممتازة، ويتمثل الإنسانية عامة لا شخصية فردٍ في شعره، وهكذا يأتي بالممتاز المعجب من أبسط التجاريب في ظاهرها المألوف. وقد تكون العاطفة متجلية في الشعر، كما قد تكون مستورة. ومن الطراز الأول عاطفة الود التي أنطقت المتنبي بمثل هذه الأبيات الخالدة التي تناسب كل زمان ومكان، وتعبر عن شعور الإنسان إطلاقًا، وإن كانت مناسبتها الظاهرة عتب المتنبي على سيف الدولة قُبيل النزوح عنه:

يا من يعزُّ علينا أن نفارقهم وجداننا كلَّ شيءٍ بعدكم عدمُ
ما كان أخلقنا منكم بتكرمةٍ لو أن أمركمو من أمرنا أممُ
إن كان سرَّكمو ما قال حاسدنا فما لجرحٍ إذا أرضاكمو ألمُ
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون همو

فهنا الحرقة أو اللوعة لا تخص أبا الطيب وحده، وإنَّما هي شعور الإنسانية عامةً إزاء الود الضائع والعقوق والكفران. ومن الطراز الثاني عاطفة الإعجاب التي أوحت مثل هذا الشعر إلى ابن هانئ الأندلسي في وصف الخيل وقد كان مفتونًا بها:

وصواهل لا الهضب يوم مغارها هضبٌ، ولا البيدُ الحزون حزونُ
عرفت بساعة سبقها، لا أَنَّها علقت بها يوم الرهان عيونُ
وأجلُّ علم البرق فيها أنَّها مرت بجانحتيه وهي ظنونُ

فهذا الفتون ببراعة الخيل وجمالها هو بمثابة تصوف في لون من جمال (الطبيعة) وهو شعور إنساني خالد. وكلا النموذجين من النسق العالي، وكلاهما يمتزج فيه الفكر بالعاطفة امتزاجًا سائغًا، وهذا عندي أرقى الشعر، وإن عددت في مستواه نماذج من الشعر الصافي يمليها العقل الباطن وحده. ومن النماذج الرائعة المرددة للشعر الفكري العاطفي دالية المعري الرثائية التي يقول في مطلعها:

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نوح باكٍ ولا ترنُّم شادِ
وشبيه صوت النعي إذا قيـ ـس بصوت البشير في كل نادِ
أبكَتْ تلكمو الحمامة أم غنـْ ـنَت على فرع غصنها الميَّادِ؟
صاحِ! هذي قبورنا تملأ الرَّحـ ـب، فأين القبور من عهد عادِ؟
خفف الوطء! ما أظنُّ أديم الـ أرض إلا من هذه الأجسادِ!
وقبيح بنا، وإن قدم العهـ ـد هوان الآباء والأجدادِ

فالجانب العاطفي في هذه التجربة الشعرية الرائعة هو ألم المعري من الحياة، كما كان يألم شوبنهاور، واشتهاؤه زوالها وقد أَنَّ من الألم:

تعبٌ كلها الحياة فما أعـ ـجب إلا من راغب في ازدياد!

والجانب الفكري متغلغل في صميمها وإن برز مستقلًّا في مثل هذين البيتين:

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد
فاللبيب اللبيب من ليس يغترْ رُ بكون مصيره للفساد

وهو في هذا الشعر العظيم المعبر الأمين عن مأساة الإنسانية وحيرتها الكبرى في جميع الأزمان.

ومن نماذج الشعر الصافي الذي تدعمه العاطفة مستقلة في مجمله في النهاية ولا تجد فيها الإنسانية إلهامًا ولا عزاء أو سلوى. وبين الشواهد على ذلك نظم الكثيرين الذين روى لهم السيوطي في (نظم العقيان).

إنَّ التجربة الشعرية هي الدعامة الأولى للشعر، فإذا افتقدت لم تكن للموسيقى النظمية ولا لمتانة الديباجة ولا للتخيل المصطنع أية فائدة للفن، بل كانت جميعها مفردات أو تراكيب للافتعال وللتحايل على الشعر، وما كان التطفُّل على الفن فنًّا. والشاعر الذي لا تشمل روحه الكونيات الخالدة ليس إلا شاعر نفسه أو بيئته أو زمنه أو موضوعه المحدود.

وكان بودي أن أضمِّن هذا التصدير الوجيز في التجربة الشعرية نماذج خالدة من الشعر العصري وعلى الأخص في العالم الجديد تؤيد وجهة نظري المتقدمة، لولا أنَّها عديدة، ولولا أني لا أحب أن يتوهم استشهادي بالبعض دليلًا على عدم اعتباري لما عداه، في حين أنِّي أعتز بالشعر العربي الأصيل الجميل قديمه وحديثه أينما كانت مصادره ومواطنه وكأني صاحبه. وما أقصد بهذا التصدير — استجابة إلى دعوة الناشرين — إلا خدمة الناشئين بين قرائي، وإجابة السائلين عن بعض آرائي الفنية، ثم الدفاع عن الشعر وعن حق الشعراء في تنويع إنتاجهم وفي التعبير عن تجاريبهم الشعرية حسب أذواقهم وحدها فهي — دون غيرها — التي تكيِّف نماذج الشعر وتغني آدابنا بروائعه

المنوَّعة التي لن تحد ما تنوعت الإنسانية وما تجددت الحياة وما تعددت ضروب التفاعل معها.

بقيت كلمة لا غنى عنها لمجانبة عامل غريب أساء إلى التجربة الشعرية في أدبنا، ألا وهو الأسلوب الخبري التقريري الذي يقوم على البيت وتصنع الحكمة المنظومة، فإنَّ هذا العامل التقليدي لم ينفع إلا الفحول من الشعراء المطبوعين الكلاسيكيين، وشتان بين قوة ابن دُريد في مثل هذا الشعر الحكيم الداعي إلى التبصر والمبشر بالكفاح والاحتمال:

لو لابس الصخر الأصم بعض ما ... يلقاه قلبي فض أصلاد الصفا[1]
إذا ذوى الغصن الرطيب فاعلمنْ ... أنَّ قصاراه نفادٌ وتوى[2]
لا تحسبنْ يا دهر أنِّي صادع ... لنكبة تعرقني عرق المدى[3]
مارست من لو هوت الأفلاك من ... جوانب الجو عليه ما شكا!

أو قول أبي الطيب في الطبيعة الإنسانية:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدَّمُ
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلم
ومن البلية عذل من لا يرعوي ... عن غيه وخطاب من لا يفهم

أو قول أبي تمام في حرية الفكر والقول وفي الاضطرار إلى الهجرة:

سأصرف وجهي عن بلاد غدا بها ... لساني معقولًا وقلبي مقفلا
وإن صريح الحزم والرأي لامرئ ... إذا بلغته الشمس أن يتحولا

وبين ألوف الأبيات النظمية السطحية التي تكومت أنقاضًا جيلًا بعد جيل إلى يومنا هذا، حتى أفسدت في أزمنة ذوق الأدباء وعرفانهم للجمال. وقد يطيب لي بحكم ذلك أن

[1] أصلاد الصفا: أحجار الصخور الصلبة.

[2] التَّوى: الهلاك.

[3] تعرقني: تزيل لحمي عن عظمي. والمدى: السكاكين.

أحبذ الأسلوب الرمزي والأسلوب القصصي، وأنْ أتفاءل بتذوق أدباء العرب في أمريكا لهما، وأنْ أتمنى أن يعاون نهجهما على اجتثاث الإيحاء النظمي الفاسد وعلى تربية الملكة الشعرية حيثما يستطاع ذلك، فإنَّ الشعر على أيِّ حال طبعٌ وموهبة لا بهرج وصناعة، بل عقيدة فنية يُسعدني أنْ أقدِّم هذا الديوان المتواضع أحد قرابيني لها.

من السماء

قالت (الأرض): «أي عطر لديكَ   سكبته السماء في راحتيكَ؟
أيُّ شعرٍ لها فتنت به الآ   ن، ولم أعطه سخيًّا إليك؟
هل علمت الأرباب فيها أسارى   ما تغنوا إلا بعطفي عليك؟
ما جمال السماء إلا جمالي   أنا أودعته قديمًا لديك؟»
قلت: «يا أم لم أبدل هيامي   أنت أمي وموئلي وغرامي
ما عشقت السماء إلا هروبًا   من حياة تعج بالآثام
أنت من أنت رحمةً بالبرايا   وهمو من همو بهذا الخصام
الدماء التي أباحوا دمائي   والسلام الذي أراقوا سلامي»
قالت (الأرض): «ما الشموس العوالي   في نجاء وإن تكن لا تبالي
في سحيق الآباد يومًا ستخبو   وتلاقي مآلها من مآلي
أنت يا شاعري تجازف بالحُبْـ   ـبِ إذا دمت عبد هذا الخيال
لن تلاقي لدى السماء سلامًا   بل نضالًا يزري بهذا النضال»
وتناهيت في السماء بروحي   وتراجعت مثخنًا بالجروح
وشهدت الصراع فيها رهيبًا   والضحايا مع الزمان الذبيح
فتغنيت عائدًا بالمآسي   وكأني أعود عود المسيح
ولثمت الأرض التي باركتني   وانطوينا على فؤادي الجريح

١٩٤٢

على صخرة سيدي بشر وحي بير مسعود

(الخطاب موجَّه إلى البحر في هذا المصيف الشهير برمل الإسكندرية.)

هيمانُ مثلك يا صديق الشاعرِ   أنظر تلهُّف ناظريَّ وخاطري!

أنا من علمت محبةً وتفانيًا   في كل معنى من نشيدك ساحر

أصغي إليه ولا أملُّ كأنما   أصغي إلى لحن الخلود العامر

عزفت به الأرباب من عليائها   قبل الوجود فكان روح الشاعر

نتقاسم الأحلام ملء خيالنا   ونبادل الإحساس بين مشاعر

وتظل تشجيني بموجك راويًا   قصص الحياة لساكن ولعابر

ألتذُّ بالصوت الرخيم وإن يكن   ذاك الرتيب كرجع حلم غابر

لغة الجمال طلاقة بل ثورةً   والفنُّ يُعبَد في الجمال الثائر

هل كان قربي منك غير عبادة   أو كان صوتك غير صوت مقادر

أو لا، ففيم تأملي وتفهمي   نجواك وهي عميقة بسرائري؟

وعلام أصحب كل موجٍ واثبٍ   وأعدُّ ذرات الندى المتناثر؟

وعلام أشغف بالصخور روانيًا   وكأنَّها قامت عروش قياصر؟

وكأنها عبدتك مثلي حرةً   فتألهت بمظاهر وضمائر

قد جئت سباق الربيع وطالما   أنشقت منك هوى الربيع الناضر

وضممتني بأشعة فرحانة   مثلي كأنك بالأشعة آسري

حتى تناسيت الربيع وزهره   وقطفت من معناك حلو أزاهري

ونسيت عندك للصلاة خشوعها   لما رأيتك في ابتسامة ساخر

وجعلت من صور الصلاة دعابتي   لك غير مكترث وغير محاذر
حتى تُشاركنا الرمال وتنتشي   هذي الصخورُ فنرتقي بالخاطر
متصوفين كأننا لم نفترق   يومًا ولسنا من غريب عناصر!

١٩٤٢

رحلة الزمان

وحي صورة فنية

يا راحلًا لم ينل من جهده تعب … مجذفًا وله الأمواج أدهار
في ذلك القارب الرمزي عالمنا، … الأمس والغد والمشهود حضَّار
تسوسها جامعًا من رمز وحدتها … للكون ما فصَّلت للكون أقدار
تحيا الأنوثة فيه بالرجاء لنا … وفي تأملها هديٌ وأنوار
تمثل (المقبل) المرجو ناظرة … إلى الأمام، فما تخفيه أستار
وهذه أختها في اللهو سادرة … تمثل (الحاضر) الحاويه قيثار
كأنما قد سلت عن غيره وبدت … نشوى فليس لها في الأمس تذكار
في حين أختٌ لها هيهات يشغلها … إلا التذكر معقود له الغار
قد أسندت رأسها إذ تستعيد منًى … ضاعت كما ضاع أحلام وأوطار
قد مجَّدتها جميعًا وهي فانية … كذلك (الأمس) مهما ساء يختار

* * *

يا راحلًا عبؤه عبءٌ يُحيرنا … كم ملء رحلته همٌّ وأخطار
نراه لكن نرى السطحي يشملنا … وكم تحجب في التيار أغوار

لم تضرب الموج بالمجذاف معتبًطًا[1] إلا وفي الموج للمجذاف آثار
يتلو روايتها الغادون في عصر شتى وتخلد فوق الموج أسطار
كم من تجاريب قد دونتها حكمًا أو ثأر أهل العلى لو يُؤخذ الثار
وكم تجاريب من طيش ومن نزق مثل الكواكب قبل الموج تنهار
تبدو على ذلك التيار قصتها وإن يكن طيها للنفس أسرار
وأنت حي على الآباد، محتكم على المقادير، وثاب وجبار
مجنَّح ثم تأبى أن تطير سدى ودائب ما له في الدأب أعمار

* * *

من السماء رجعنا بعد رحلتنا وبينها من عصور الخلق نظار
فقلت للزمن المومموق: «يا زمني ألم تشبك كشيبي اليوم أسفار؟
أما سئمت من الأجرام عابثةً ومن شموس لها قصف وأسمار
ومن تجاريب في الإبداع طائشة رهن الملايين لا تخبو بها النار؟»
فقال: «بل هي سلوى ملء بوتقتي وتلك للفن إلهام وأخبار
إنا كلينا قبسنا من محاسنها ومن محاسنها خلق وأفكار
ومن تجاريبها دنيا أجددها كما يُجددها لحن وأشعار!»

١٩٤٢

[1] معتبطًا: مجروحًا.

الجدول المسحور

على مقربة من ملروز في إيقوسيا يوجد جدول ماء متغلغل تحت الأعشاب والنباتات المشتجرة الزاحفة يُدعى «بوجل بيرن» اشتهر إلى جانب جماله بأسطورة ظريفة أوحت كما أوحى إلى صاحب الديوان بهذه القصيدة:

(ملروز) جدولك النَّئُوم الحالم ... ما زال من حبي عليه نسائم
الذكريات زهت به في عالمي ... وهو الذي لا يزدهيه العالم
متحجب خلف النبات وتحته ... لكن تنم على سناه معالم
فكأنما دعة الأنوثة روحه ... تخفي فيفضحها الحنان الناعم
جالسته وكأنَّما في صحبتي ... بين الجنان مراشف ومباسم
ومن النبات ستائر سحرية ... ومن الأشعة والظلال مجاثم
يا طالما خاطبته بتأملي ... فيجيبني ذاك الخرير الحالم
وكأنني في حلمه مستغرق ... وكذاك يحلم صادح أو باغم
كل (الطبيعة) حولنا بسكينة ... نسج الخشوع لها الجمال الدائم
وأنام أرتشف الخرير مدامتي ... ومتى أنام ولي الخرير منادم؟
أصحو على سكري، وآبى هجره ... وأخاله قوتي، وما أنا واهم
قد كنت أنفق في اصطحاب سنائه ... من خير أيامي كأني غارم
فيعيدها عمرًا جديدًا ضافيًا ... لهواي فهو مزود ومقاسم

وكأن محراب الطبيعة كهفه[1] وكأنما أخفت سناه مناجم

* * *

لم أنسَ ليلة جلستي في قربه والبدر يسكب نوره في حبه
والصيف في أنفاسه من عطره وحي لبلبله[2] القرير بقربه
يشدو بصوت كالضياء صفاؤه والماء مهتز كهزة عشبه
في فرحة مثلي وفي تهليلة للفن تنبع حرة من قلبه
ونقيق عشاق الضفادع مالك سمعي، كأنَّ نشيدها من كسبه
حفلت جميعًا بالحياة وبالهوى مثلي ولم تعص الهوى في شربه
نتبادل الأنخاب بالذكر التي نهبت، وما برح الزمان بنهبه
حتى رجعنا نستعيد أحبَّها منه ويغفر أنسنا من ذنبه
بوليمة للروح قبل مشاعر سكرى، وكل عاشق في صحبه
متباينين موحدين، تصوفت ألبابنا في الكون فهي بلبه
من علَّم النبت الضئيل عبادتي؟ بل عالم الحشرات من صلى به؟
لم نصطنع لغة سوى إحساسنا بالحب، أو خمرًا سوى من سكبه
فسكتُّ كالمشدوه وهي بجانبي في عتبها، وتصوفي في عتبه
فلثمتها وكأنَّ من لثمي لها قربان من أنهى الصلاة لربه!

* * *

قالت فتاتي: «هل سمعت الماء متمهلًا يروي لنا الأنباء
عمن مضوا وتفيئوا أزهاره أو بادلوه محبة ورجاء؟»
فأصخت للماء المثرثر هامسًا يستوقف الجنيَّة الحسناء
متداولًا ذكرًا كأنَّ لنا بها عبرًا تثير الشعر والشعراء
قال الطروب الماء: «يا حوريتي كم ذا جنيت هنا صباح مساء
ماذا أصاب فتاك حين دعوته ليقبل الثغر الجميل فناء؟»[3]

---

[1] كهفه: غوره.

[2] يعرف أيضًا بالعندليب وبالمهر وفي الشعر الإنكليزي قصائد رائعة في وصف شدوه وسهره.

[3] فناء: فسقط ونأى.

قالت: «تشهيت الجمال بذاته — لا أن يذال كما ترى ويساء
وحرصت أن يحيا لديَّ متوجًا — في عالم لم يعبد الفحشاء
ما ناله سحري بغير محبتي — فهو الأسير وما أراد نجاء
كان التحدي بعض إغرائي له — فهوى يقبلني فصيد جزاء
ومضى تبيعي غائبًا في عالم — بالسحر ينبض روعةً ورواء
ومنحته تفاحةً مسحورة — من ذاقها لا يستسيغ رياء
حتى إذا ما شاء زورة أهله — يومًا رأى دنيا الرياء فباء[4]
وأبى الأنام وكل ما حفلوا به — ورأى الضياء حيالهم ظلماء!»

* * *

قالت فتاتي وهي في سكر الهوى: — «أترى إذا قبلتني نلقى النوى؟
هل أنت تخشاها؟[5] فمالك صامتًا — متأملًا متوجسًا كمن ارعوى؟
أتظنني جنيةً حوريةً — فرأيتني خطرًا ولا خطر الهوى؟»
فضممتها ولثمتها ورضيتها — دنياي بل أخراي عن دنيا الورى
وأجبتها: «هل من نعيم يُشتهى — غير النعيم لمن أحبك وارتوى
ستجيء أعوام أعيش بحرقتي — فدعي الظنون بل ادفنيها في الثرى
ولتمنحيني الآن ما تهبينه — لمسافر لم يصطحب غير الجوى
إني أرى آتي السنين مهددًا — حظي وألمح فيه أقسى ما احتوى
فهلم نسخر من زمان حاقد — من قبل أن يسعى بنا أو بيننا
كم من غرام طاهر أودى به — كعبير هذا الزهر ضاع مع الهوا»
فبكتْ، فقهقهت المياه لشجوها — وتضاحكت أعشابها بين الحصى
وسمعت من حورية محبوسة — في طيه أنات من فقد المُنى
فعجبت من هذي المياه وسحرها — ورجعت ألثمها وأدخر الغنى
والآن من بعد الفراق وما جنى — أحنو على ذاك الزمان وما جنى!

١٩٤٢

[4] فباء: فرجع إلي.

[5] أي النوى.

بجماليون

من خيالي جبلت حسنك تمثالًا فطافت حياله الأنبياء
مشرقًا من جمال ما علموا حين الذي علَّموا طواه الفناء
سجدوا مثل سجدتي لمحياك فمنه تألف الإيحاء
نظرةٌ للألوهة استعبدتنا وعبيد الجمال هم من أضاءوا
وتخلَّوا عن السماء فإنَّ الأرض لما سكنتها تُستضاء
بل لدن أبدعت يد الفن فيها رسمك الذي اشتهته السماء
أتملَّاه في شخوصي وأحلامي ومن غير فؤادي براءُ
يا مثاليتي التي لم تدنس بتشابيه كلها أهواء
ما تسابيح مُهجتي فيك إلا صلوات روحية غناءُ
لم تُعرف ولن تعرَّف يومًا لنفوس لم يستثرها الضياء
والضياء الذي تشبعت منه غير دنيا ضياؤها ظلماءُ
والجمال الذي تغنيت فيه غير ما تابع الورى كيف شاءوا
كلما جئت مفصحًا عنه ردتني إلى الصمت نشوةٌ خرساءُ
بايع الأنبياء قلبي بالحب وعبئي من دونه الأعباء
ففروضي فروضهم وعباداتي وحيدًا هي الغنى والجزاء
وهي همِّي ولوعتي وشجوني وهي أنسي ولذتي والرجاء

* * *

وتجليت فتنة وأنا العابد لا تستشيره الضوضاء

وتـخـيـلـت إنـنـي ذلـك الـمـغـرم يـصـبـي خـيـالـه الإغـراء
فتباعدت، حينما أنت للفن خيالي المقدس الوضاء
لا التي يعشق الورى، وهي منهم، ويُباهي بوصفها الشعراء!

١٩٤٢

الزمن المريض

عزاء إلى شاعر صديق

قد كنت آمل أن أراك بصحةٍ غردًا وفي دنيا من النعماء
لأجدد الحب القديم وإن يكن حبي المؤصل في صميم بنائي
فإذا دموعك كاللهيب تصدني ومن اللهيب لواعج الآباء
ريع الفؤاد وقد قرأتك باكيًا هذا الصباح فما ملكت بكائي
لم أرث في دمعي شجونك وحدها بل كان للزمن المريض رثائي
عشنا نعالجه فخان وفاءنا وجنى، وكم يجني على الشعراء
هذي ضريبته، وهذا عالم العدل فيه مخاتل ومرائي
لم ألقَ غير الفن ملجأ رحمة وعزاء من يصبو لصدق عزاء
فالجأ إليه مثابةً علويةً وتلقَّ فيه من العزاء وفائي

١٩٤٢

يأس

إني يئست، ومثلي غير متهمٍ، من الأنام، ويأسي من أحاسنهم
إن أنصفوني فغبني عين نصفتهم وفيم غبني وجهدي غير غابنهم؟
قد حرت ما بين تجريح لعاقلهم كأن عاقلهم ند لماجنهم
وبين ميزانهم للحق في سفه حتى تساقط حقي عند وازنهم!

١٩٤٢

إلى الفن

(توديع للآنسة الفنانة فاطمة هنو قُبيل التحاقها بمعهد الموسيقى بالقاهرة.)

إلى الفن نجواك يا (فاطمة) إلى الفن بسمتك الحالمهْ
ستمضين أحوج من ترتجيك عيون وأفئدة ساهمهْ
لكم نعمت منك بالعبقري من اللطف والدعة الباسمهْ
ومن نكتٍ بالمعاني الدقاق حوافل، والمُلَح الدائمهْ
أثيرية الطبع لا تستقر خواطرك الحرة الهائمهْ
كأنك جوالة في الوجود تصيدين ألحانه العائمهْ
وتعطينها طرفًا غاليات من الظرف والصور الناغمهْ
سنحرم في البعد هذا الرحيق فما الزاد للأنفس الصائمه؟
ولست البخيلة للأوفياء فهل تخذلين المُنى الغارمهْ؟
سُقينا التفاؤل من وجنيتك بضحتك الحلوة الناعمهْ
ولما نزل بعد من تابعيك نرجيك في الوحشة القاتمهْ
نرجيك مستذكرين الرشاقة والأنس والحيلة الواهمهْ
ونلقاك بين الأغاني اللطاف تُدين عواطفنا الناهمهْ
ومل رؤى الشعر حول (الطبيـ ـعة) وهي بيقظتها نائمهْ
لكم كنت ترعينها في الحقول وتستلهمين الرؤى الجاثمهْ
فعودي لها بجديد الغناء تعودي بآياتها الكارمهْ
ولا تحسبي الفن رهن السماء ففي الأرض دولته قائمهْ

نعم، أمنا الأرض من أبدعته   وطـار بـأجـنـحـة نـادمـهْ
فلا تجحدي فنَّها أين كنت   فأنت الوفيَّة يا (فـاطـمـهْ)!

١٩٤٢

قصر ريجيا

(تحية إلى الصديق الشاعر الموهوب مفيد الشوباشي حين أصدر كتابه عن أيام كلوباطرا الأخيرة.)

يا (قصر ريجيا) أين أنت؟ وهل سلمت؟ وهل أمنت؟
فتشت عنك فلم أجدك، وجئت أستوحي فبنت
هذا (مفيد) شعره المنثور ينثر ما كنزت
ويعيد ما استطيبته وإلى مفاخره حننت
وكأنه من ساكنيك وقد تحرك إذ سكنت
شهد الولائم والمجالس والمراقص مذ أذنت
وقياصر الرومان والمجد الذي كان وكنت
وعراك (بطليموس) والثأر القديم وما غنمت
وهوى (كلوبطرا) وما فقد الهوى لما هويت
واليوم يوفي دينه أدبًا غنمنا بل غنمت
قصصًا من الفن الأصيل به فتنًّا إذ فتنت
يُتلى وكل حاضرٌ عصر الفخامة فيك أنت
لا قارئٌ وصفًا له يطوي كأخبار وموتى
فلأنت حي بيننا جمٌّ الشموخ كما عهدت
والشعب دفَّاق حيالك هاتفًا حتى جننت
ويقهقه المرح الطليق وبعده الأحداث شتَّى

لـو أنـنـي حـاولـت فـي شـعـري تـتـبُّـعـهـا غـبـنـت
وأديـبـنـا الـخـلاف يـرسـمـهـا فـنـلـمـسـهـا وتـؤتـي
وكـأنـهـا مـلـك لـه، وكـأن مـا أوحـى تـأتَّـى
جمع الحقيقة والخيال فما اكتفينا واكتفيت!

١٩٤٢

خلائق اليوم

(وحي صورة فنية للرسام الإنكليزي رسل فلنت عضو الأكاديمية في لندن.)

مظاهر فن أم تهاويل ساحر؟ ... لقد ملك الفنان لبي وخاطري

ألم يودع الأصباغ فتنة عصره ... كما أنطق الأصباغ روح المعاصر؟

وما اختار غير البحر معرض فنه ... فقد نبتت في البحر شتى المشاعر

أبونا[1] الذي ربَّى العصور فأنجبت ... له حيوات من كريم العناصر

وقد نشر الإلهام إثر مسيرها ... كأنَّ من الإلهام زاد المسافر

رجعنا إليه[1] اليوم ظمأى لوحيه ... وإن كان مذخورًا بصورة ساحر

وما الريشة الزهراء إلا عواطفًا ... وإبداع خلاق ومزمار شاعر

فيرفض منها النور والظل عالمًا ... جديدًا كأشعار الربيع المباكر

نُصحابه حسًّا وفيًّا مُجسمًا ... وإن كان لم يبرح خيالًا لناظر

فيا لوحة فيها الملاحة نفحة ... تعالى بها الفنان عن طيش عابر

عرفناك معنى عبقريًّا نحوطه ... بأفئدة ولهى ونجوى السرائر

تراءت به (حواء) في مُثلٍ لها ... منوعة كالخمر عند المعاقر

ولكنها كالخمر أصلًا ونشوةً ... وإن نوعت في الوصف أو في المظاهر

فنسكر من لهوٍ لها وتجرد ... ومن ضجعة هزت عروش قياصر

---

[1] أي البحر.

وما الزورق الثاوي قريرًا بقربها سوى (زورق الدهر) الغيور المغامر
فلولا رضى (حواء) ما ساح ناجيًا ولا كان أستاذ العصور الغوابر
ولا خلَّد العمران رغم انتشائه بسفك الدم الغالي ونشر المقابر
شربت مع (الدهر) الخيالات وحدنا وسحنا إلى مهد العلى والعباقر
وعدنا فلم نظفر بعلم مجدد ولكننا عدنا بإيمان ثائر
وكانت لنا (حواء) في كل منزل نزلناه معنى فوق معنى المقادر
كأنَّ ضياء الكون شعلة روحها كأنَّ هواها غامر كل غامر
وكل الذي يُرجى سواها تعلةٌ من الوهم نجزيها ببسمة ساخر!
معانٍ تراءت في خيالي كومضةٍ ولكنَّها ذخر لحيٍّ وقاهرِ!

١٩٤٢

بطل العلمين

(قيلت في أول يولية سنة ١٩٤٢ تحية للجنرال أوكنلك.)

إلى البطل الثاوي لدى (العلمين) أزفُّ من الإعجاب أهون دَيني
إلى المنقذ الآلاف وهو مجازفٌ كأنَّ مآل الحرب رهن يدينِ
تخطى صفوف الموت بالموت هازئًا وأرجع مفقود الرجاء لعيني
وأنذره العادي بشر هزيمةٍ فعانى سراب الطيش في (العلمين)!

* * *

لقد سخرت منه التلال ورددت لها ضحكات السخر غضبى المدافع
وقد أقبل الفرسان كل لثأره وكل بدباباته غير قانع
عزيز عليهم أن يردوا فراسخًا وقد صبغوها في قديم المواقع
وقد أورثوها بالدماء شعورهم كما أخصبوها بالهوى والمدامع

* * *

إلى البطل الحر الذي لم يمت له يقين لدن ريعَ الرجالُ وماتوا
إلى العلم الصنديد يحرجه الردى فيسمو ولا يسمو إليه ممات
إلى من يرد الغرم غنمًا موطَّدًا ومن قلبه قبل الحماة حُماةُ
تحية من يهوى البطولة فذةً ومنها شعاعٌ للورى وحياةُ

١٩٤٢

نجوى العيد

(قيلت باسم المؤتمر الطبي العربي الخامس برئاسة سعادة الدكتور علي إبراهيم باشا في تحية حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا إثر حفلة الغداء التي أقامها رفعته تكريمًا لأعضاء المؤتمر بكازينو أتنيوس بالإسكندرية يوم الإثنين ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٢.)

لمن تُزَفُّ التهاني أيها العلَمُ؟ إليك أم للألى في فرحة نعموا؟

نعم إليك، فما يرضيك يسعدنا وهكذا تزدهي أعلامها الأمم

وليس أعلامها غير الألى بذلوا كما بذلت ومن عانوا ومن خدموا

الواهبين من الأعلاق أنفسها عند الشدائد لا يلوي بهم ندم

العازفين عن الأطماع مغرية وعن نداء الدنايا سمعهم صمم

إنَّ الزعامة إقدام وتضحية حين التخاذل في يسر هو العدم

وليس (كالمصطفى) يسمو تواضعه إذا هوى في غرور الغاشم الصنم

اليوم يجمعنا حب توزعه وكلنا طامع: تُعطي وتقتسم

لمَّا مددت يدَ الترحيب تكرمنا لم ندر كم من معان يسبغ الكرم

أهدى (علي) إلى علياك طاقته[1] وليس بعد الذي يهديه مغتنم

وما أقل الذي يُهديه من كلم وما أجل الذي توحي به الكلم

---

[1] الطاقة: باقة الرياحين.

يغضي ويطرق كالأرباب معتكفًا ... وذهنه عالمٌ هيهات يُقتحمُ
وما (علي) سوى ذخرٍ لأمته ... من علمه العلم أو من حكمه الحكم
جاء الإمام لأهل الطب ينهضهم ... وجاء من قسوة الأيام ينتقم
وحوله جمعنا يُوفيك في شغفٍ ... أغلى الثناء على ما صنته لهمو
وما يزيد ثناء شأو رفعتكم ... لكن به تتسامى مهجة وفمُ!

* * *

هذي (العروبة) في ناديك سامقة ... وإن يُرجي حجاك (العرب) و(العجم)
وهل (فلسطين) إلا (مصر) أو عرفت ... ربوع (لبنان) إلا (مصر) عندكمو؟
أو (العراق) بجنات تغازلها ... جنات (سورية) الفيحاء؟ فهي همو
جميعها فلذات من أبوتكم ... وأهلها طالما رجَّوْك إذ حرموا
جاءوا على سفر مضنٍ فما تعبوا ... لمَّا طلعت تحييهم وتبتسمُ
وإن يكن زادهم علمًا وتجربةً ... وهمة لم تجز إيمانها الهمم
ونصطفيك بإخلاص نعز له ... كما تعز به الأخلاق والشيم
كم بين مؤتمر ماضٍ ومؤتمر ... بادٍ سقينا جميلَ الود بينهمو
ونافسونا فبزُّونا بما بحثوا ... وزوَّدونا فأغنينا بما علموا

* * *

(إسكندرية) رفت في مباهجها ... مثل العروس إذا خطَّابها ازدحموا
بنت الحضارات لم تبرح معالمها ... قلائد الفن تُستوحى فتنتظم
والبحر يصغي كما تصغي مشاعرها ... والموج مصطفق حينًا ومحتدم
ألم يشارك هوانا أو عواطفنا؟ ... أو علَّه مثلنا للنور يغتنم
هذا مجال خيال الشعر رائده ... وأنت رائد آمال الألى حلموا
والحرب تستعبد الإنسان جامحة ... حتى لينسى الأسى والويل والألم
إنا احتشدنا لعلم نستعز به ... حين الممالك أشلاء هوت ودمُ
وحينما أرسل الطاغوت صيحته ... تفشي الدمار توالت عندك النعم
وحين كل جحيم صارخ لجب ... يشوي الشعوب تعافى (النيل) و(الهرم)
هذي أنانية الدنيا تضرجها ... لولا الأنانية الدنيا لما اختصموا
وأنت تضرب للإيثار أمثلةً ... وليس في منتهى الإيثار ما يصم

كـأنَّ سـيـرتـك الـزهـراء مـعـجـزة ... فـي عـالـم مـلـؤه الأوزار والـرمـم
لـعـل فـي يـومـنـا فـألًا لـخـيـر غـد ... حين السلام وحيث العدل والشمم
حيَّتْ مدينتنا الغناء طلعتكم ... فإنَّ أضواءها من حولكم نغم
واسترجعت من عصور زهو جامعة ... كانت تعلِّم للأجيال من حكموا
فإن شكرنا على الترحيب يغمرنا ... فلا اللسان بمعوان ولا القلم!

* * *

يا عهد (فاروق) هذا عهد أمتنا: ... عهد الولاء الذي ترقى له الذمم
إنا أمنا بظل من رعايته ... ففي رعايته عدل لمن ظلموا
والعدل ليس بعدل في جلالته ... إن لم يعمم وهذا عدله عمم
يا وارثًا عرش (بطليموس) مقتدرًا ... ترف في ذكرك الآمال والعلم
تيمنت باسمك المحبوب نهضتنا ... كما انتشت حوله الآثار تلتئم
فكل فضل جديد أنت معلنه ... له الأصالة في التاريخ والقدم
عمر مديد من الإبداع رنقه ... أجدادك الغر من شادوا ومن فهموا
وزدته أنت تدعيمًا وتزكيةً ... فمن مبادئك الدولات تدعم
إنَّ الملوك ملوك من شمائلهم ... قبل العروش وإنْ جلَّت وإنْ عظموا!

١٩٤٢

تحية المليك

(لمناسبة إهداء الدكتوراه الفخرية إلى الملك فاروق الأول بجامعة الإسكندرية إثر افتتاح كلية الطب بهذه الجامعة.)

مولاي! رحبت الثقافة وانتشت بالمهرجان مدينة (الإسكندر)
خلعت ملاحتها على أفراحنا وخلعت أنت وضاءة الأدب الثري
وتنافست صور الطبيعة والورى بمشاهد لم تفتقر لمصور
ما كل يوم للثقافة موئل والعصر عصر تناحر وتجبر
هتفت لمقدمك القرون ورددت آمالها لمُناظر ومذكِّر
وتألق اليوم السعيد بشمسه فكأنها سارت بموكب (قيصر)
إن كان حجَّبَها الغمام هنيهة فكذلك الحسناء للمتنظر
أو كان داعبها الغمام بوكفه فلقد تأدب عن هوى المستهتر
وكأنما النسمات في هذي الربى تسري بإعجاب الربيع المبكر
وتردد الأنفاس من أنفاسنا بحفاوة لم تجتمع في منظر
بالفاتح الملك الأبي وحسبه بين الملوك حفاوة لا تمتري
وشجاعة حين الكوارث روعت فتراجعت في صدمة وتعثر
وشمائل في البر بين رعية عشقته واستوحته للآتي السري
أين التفت رأيت جمَّ متاحف وروائع للمجد لم تتغير

عاشت بإيمان العظائم واعتلت   كمنارة الأمس الرفيع النير[١]
إن كان عفَّاها الزمان فإنَّها   خلدت بأعجب سيرة أو مظهر
والبحر حول سياجها متهافت   والموج بين مجاوب ومثرثر
لغة الطفولة ما حكاه وما حكت   والكل بين معمرٍ ومعمر
يصغي إليها الشاعرون كأنَّهم   أخذوا، وتستهوي الذي لم يشعر
لا الحرب هدتها ولا أيدي البلى   بل عاش يصقلها الزمان المجتري
قد عاد يخدمها بذلة صاغر   فكأنَّها ثأرت وإن لم تثأر
وكأنَّ حرمتها ديانة عالم   فتقدست عمن يبيع ويشتري
وأضفت أنت إلى جلالتها غنى   بجلالك الحر النبيل الخير
وبفتح (جامعة) بيمنك عرَّفت   فزهت على فتح الوغى والعسكر
ولعل (دينوكرات)[٢] بين جموعنا   متخفيًا في غبطة وتأثر
يُصغي ويهتف مثلنا لمدينة   عاشت تجاوب حلمه في الأعصر
تجري الحياة بها فنونًا جمةً   وترف أحلامًا وعزة جوهر
ولعل مدرسة (البطالسة) الألى   بهروا الزمان تمثلت للمبصر
وكأنَّما لما تقمص روحنا   أعلامها سرنا بموكب (سوتر)![٣]

* * *

نُخب العلوم العاليات تسابقت   في خطب بشر العاهل المستبشر
رفعت إليه تحية إعجابها   بهدية جازت ظنون مقدر
والطب لم يسعد بيوم حافل   أسنى وأجمل أو عبير مسكر
تلك الوثيقة عهدنا ووفاؤنا   في خدمة الفكر العظيم المثمر
أبهى وأكرم من خرائط دولة   تجتاح في حرب وغزو مقفر
ولأنت أشرف من يجل رموزها   ويزيد من إيحائها لمعبر

[١] منارة الإسكندرية — إحدى العجائب السبع للدنيا القديمة.

[٢] دينوكرات: هو المهندس الذي عهد إليه الإسكندر في تخطيط مدينة الإسكندرية.

[٣] سوتر: هو بطليموس الأول الذي بدأت الإسكندرية تترعرع في عهده وكان مؤرخًا جليلًا عظيم البِرِّ بالعلم والعلماء.

تفنى الحروب بما جنته ودونها   تبقى الحياة لباحث ومفكر

* * *

مولاي! غنَّى الشعر في أفيائكم   وتراقصت رباته للمزهر
ولمحتُ كوكبةً بها أعلامُه   يتزاحمون لوحيك المستأثر
هرعوا، وكلٌّ سكندري خالد   من ذلك الأمس النضير المزهر
تبعوا (تيوكريتيس)[٤] وهو مُوقِّع   لحن الجمال لشاعر وشويعر
فسبقتهم كيما أفوز بسمعكم   قبل النجوم، ولست بالمستغفر
وسعت شمائلكم محبة شعبكم   من حاضر حيٍّ وناء مضمر
فسلم مليك (النيل) رمز فخاره   لا رمز عصر ماثل، بل أعصر!

١٩٤٣

[٤] تيوكريتيس: هو أول اثنين من فحول الشعراء السكندريين، وقد اشتهر بشعره في جمال الطبيعة.

الموتى المشردون!

(وجهت إلى جلالة الملك فاروق الأول.)

مولاي! حبُّ الشعب أعظم ثروة   لك من كنوز التاج والسلطان
كن أنت رائده ووزِّع أرضه   لبنيه (كالفاروق)[1] في الإحسان
ما شأن آلاف الفدادين[2] التي   هي كالمقابر للسواد العاني؟!
ذهبوا بأرجاء البلاد تشردًا   وتكفنوا بمذلة وهوانِ
وجميعهم موتى، وتلك لحودهم   ملء الضياع الفخمة العمرانِ
تركوا المقابر صاغرين فعيشهم   ومماتهم بهوانهم سيان
وتجاوبوا بأنينهم وسقامهم   وجراحهم في عالم البهتان
أنت العظيم، فلا تدع إخلاصهم   لك يُستباح بلا هدى وأماني
بل لا تدعهم في الورى أمثولة   لتدهور الإنسان بالإنسان!

١٩٤٣

[1] الخليفة العادل عمر بن الخطاب.

[2] ضياع الإقطاعيين الذين يملكون على قلتهم معظم ثروة الأمة حينما الأغلبية الساحقة منها في حكم الموتى المشردين.

الحنين

كم يستبد الحنين! ... أواه لـو تـعـلـمـيـنْ

وكـم يـئـنُّ فـؤادي ... ومـا شـكـوت الأنـيـنْ

كـأنَّ بـاقـي عـذابـي ... فـروض نـسـكٍ وديـنْ

كـأن طول احـتـمـالـي ... غُنمٌ لـقلبي الـغـبـيـنْ

سـاءلـت عـنـي ولـكـن ... شـكـي يـردُّ الـيـقـيـنْ

وكـلـمـا زدت قـربًـا ... بـعـدتُ أو تـبـعـديـنْ

ألـقـاك نـشـوان لـكـن ... حزنـي بـقـلبي دفـينْ

علـى جـمـالٍ مـضـاعٍ ... مـا كـان لـلـعـابـثـيـنْ

أولـى بـه وحـيُ فـنٍ ... ووحـيُ حـبٍّ أمـيـن

لـكم هـتـفت بـشـعـري ... فبات شعري الثمين

وشـع خـمـرًا حـلالًا ... من فيك للظامئينْ

أصـغي إليك بحلمي ... وأنت حلمي المبينْ

في حيرة لم تكيَّفْ ... على امتحان السنينْ

أصـار فـنـي عـزيـزًا ... في حين حبي مهين؟

أتـحـفـلـيـن بـشـعـري ... ولست بي تحفلينْ؟!

* * *

ولـيـلـة مـن نـعـيـمٍ ... أطعتُ فيها الحنينْ

وما ارتضيتُ شكوكي … ونهي عقلٍ رصينْ
وما طُبعتُ عليه … من الحياء الكمينْ
كأنَّما البدرُ أوحى … إليَّ ما تشتهينْ
فسرت أنفض همي … والنور برء الحزينْ
في موكب من خيالي … يخص بالشاعرينْ
كأنَّما فيه سارت … عواطف الخالقينْ
كأن (فينوس) غنَّت … ملاحم العاشقينْ
وذا (كيوبد) يرمي السهام في اللاعبينْ
فيضحكون سكارى … وكلُّ قلب طعين
إن يبدع النور وهمًا … فلست في الواهمينْ
تلك الطيور لداتي … وليس فيها كنينْ
إن يخذل الناس فنِّي … فليس فيها ظنينْ
قد عودتني احتفاءً … كإخوتي في الفنون
كم شجعتني بعطف … فكان همِّي يهونْ
كم صاحبتني لصفو … والصفو سر مصونْ
وجئت جنَّة أنسي … كأنَّ أنسي رهين
وما أردت فكاكًا … لو أنَّما تأذنينْ
لكن جعلتُ ابتهالي … تصوف العابدينْ
كأن روحي قصيدٌ … يذوب للملهمين
كأنَّ قلبي المعنَّى … قد ردَّ للفاتحين
ساد التجاوب فينا … فلم يعد يستكينْ
وقد تناولت كأسي … من الغرام الضنينْ
كأن (باخوس) أوحى … بكل ما تبذلينْ
من عالم سرمدي … للحب أو للفنون
نروي ونحكي وننسى … ونحن في الحالمينْ
وأنتِ أسنى وأبهى … من كل ما تُبدعين
حتى أذنت بلثم … لنور ذاك الجبينْ

فـمـا لـثـمـتـك حـتـى سموت في الخالدينْ
ومــا تــركــتــك إلا رجعت مثل السجينْ
مستسلمًا في حنيني إلـى عـذاب الـحـنـيـنْ

١٩٤٣

قبلة ميلادي

يا نشوة الحب القديم ولهفة الحب الجديد
جمعتكما في قبلة سكرى غرامي وعهودي
أودعتها ما صانت الأحلام من عطر الخلود
وسكبتها راح الهوى ودمًا من الشوق الشهيد
ثم استعدت خيالها لحنًا تألق في نشيدي
ونظمتها شعري الذي يحيا بأنفاس الورود
وخلقت أي هدية منها لميلادي السعيد
وكأنَّما هي نغمة زُفَّت إلى سمع الوجود
تستمتع الدنيا بها مثلي وتخلد في قصيدي
والكون أحفل بالهوى للشاعر الحر الفريد
من عالم في صخبه يعنو لشيطان مريد
ما سيَّر الأجرام غير الحب في جذب رشيد
أو أبدع الإعجاز غير جماله الموحي البعيد
فترسلي يا فتنتي بحنانك العذب الوليد
ودعيه يزهر ناميًا، لا ترهقيه بالقيود
ودعيه يبلغ مثل تحناني وإيماني المجيد
فيعيش توأم مهجتي في عالم الحب الرغيد
لا يعرفان الشيب أو عمرًا سوى الخلد المديد

وأعود أستوحي وأحيا بين تقبيل جديد
لا شاردًا متعثرًا آوي إلى قلبي الشريد
مستمتعًا من حلو ساعاتي بعيدٍ بعدَ عيد
ومخلصًا لك آية الفنان في الفن النضيد

١٩٤٣

الإسكندرية الفنانة

(أنشدت في حفلة رابطة اللوتس بمدينة الإسكندرية التي أُقيمت لتكريم أعضاء هيئة التدريس بجامعة فاروق الأول يوم ٢٥ مارس سنة ١٩٤٣.)

الفن أنت فجئتُ أستوحيك ... وعبدت ألوانَ الملاحة فيك

ونعمت بالنجوى فقربك جنة ... خصت بروح الفن دون شريك

تتهافت الأجيال حول جمالها ... كتهافت الأحلام حول مليك

وتحدث الأطياف في جنباتها ... بروائع الآيات من بانيك

عاشوا وعشت مجاوبًا لندائهم ... بالحب يحييني كما يحييك

رقصت محاسنك الوضاء أشعةً ... وعواطفًا لمنعم وضريك[1]

عشقوك واعتزوا بحبك، واهتدوا ... بسناك، واعتصموا بمجد أبيك

وعبدت فاتنة الجميع كأنَّما ... خطرت (كلوبطرا) لمستوحيك

خطرت وموج البحر رفَّافٌ لها ... وتوشحت بضيائك المسبوك

وجلت على البحر الطروب مفاتنًا ... فإذا بحورياته تحكيك

عكست ملاحتها صباحة (زينب) ... وحكت دعابتها رشاقة (بيكي)

والجوُّ موار[2] بأنغام الهوى ... وبكل فتح للغرام وشيك

---

[1] الضريك: الفقير السيئ الحال.

[2] موار: مائج. والإشارة في البيت السابق إلى اجتماع الجمال الشرقي والجمال الغربي بمدينة الإسكندرية.

ومـلاحـم الأربـاب تـعـزف فـوقـهـا وتـحـول أشـبـاحًـا لـمـثـالـيـك
فوضى من الفن الجميل تناثرت وتـجـمـعـت فـي دولـة وأريـك[3]
وتدللت بـالـعـبـقـري من الـغـنـى لغواية (المجنون) و(المفلوك)
صـور قـداسـتـهـا الـحـيـاة بـذاتـهـا نفحت أساطير الغنى المتروك
وأبـت لـنـا إلا الـخـيـال رفـيـقـنـا ومن الخيال حقائق (الصعلوك)[4]
من ذا يـحـاكينا ويقدر ما حكت شـفـتـاك من سـحـر لمستمعيك
ويـرى ويـعـرف مـا أصـالـة حـبـنـا ولـمَ ارتـفـعـت بـسـوقـةٍ ومـلـوك؟

* * *

وافـى (الـربـيـع) فَـتَـاهَ كلُّ مـغـردٍ وحلا الشروق، وطاب صوت الديك
وازداد مـجـدك عـزة وجـلالـةً وطـلاوةً، فـلـعـلـه يـكـفـيـك
وتـسـابـق الـعـلـمـاء حـولـك مـثـلـمـا يـتـفـنـن الـشـعـراء فـي نـاديـك
حـفـلـوا بـجـامـعـة رفـعـت مـنـارهـا بـيـن الـديـاجـر والـدم الـمـسـفـوك
إن كـرمـونـا فـهـو تـكـريـم لـهـم وهـمـو أحـق بـمـدحـة تـرضـيـك
هـذي خـمـائـلـهـم وكـل بـلـبـل حلـو البيان سقاه من يسقيك
شهدوا (لأفروديت) أعراس الهوى[5] واسترجعوا ماضيه من ماضيك
وعفا (السربيوم)[6] الذي غنوا به وبـقـيـت أنـت لـنـا ومـن غـنُّـوك
وتـدفـقـوا كـالـنـبـع سـال جـداولًا تروي كما يروي الهوى من فيك
وتفننوا بمنى (الطبيعة) فانتشوا لـمـا انـتـشـت وحـنـت عـلـى أهـلـيـك
فـلـهـم ثـنـاء (الـفـن) قـبـل ثـنـائـنـا و(الـفـن) كـان ولـم يـزل واقـيـك
ولـهـم تـحـيـات (الـجـمـال)، فـإنـهـا قـد نـزهـت عـن عـاطـل وركـيـك
لغة الألوهة شأو من هتفوا بها[7] لا مـثـل أشـعـاري لـفـنـانـيـك!

١٩٤٣

[3] أريك (جمع أريكة): عروش.

[4] المجنون والمفلوك والصعلوك — إشارات إلى الغزليين البوهيميين من الشعراء.

[5] أفروديت: إلهة غانيات الإسكندرية.

[6] السربيوم: معبد الإسكندرية العظيم الذي هدمه البطريرك تيوفيلس.

[7] شأو: قدر — أي ما يجدر بهم.

الفن الضائع

(مهداة إلى فتاة المندرة برمل الإسكندرية.)

لمن تمنحين الحب دوني عن عمد؟
وماذا يرجى الحب من شاعر بعدي؟
وحسنك أولى أن يُصان جلاله
على الفن، حين الفن كالحسن للخلد
وما عالم الناس الذين تطاولوا
سوى عالم بين النفاية والكيد
ترفعت عن أن تسكنيه فحاذري
وخلي الهوى والحسن دينًا لمستهدي
ولا تتركي الأيام تنهب خاطري
وتعصف — ما شاءت — بحبي أو وجدي
فإني تراث للملاحة والهوى
فإنْ ضَاع لم يسعدك غبني أو فقدي
لئن كان من حق الجمال عبادتي
فمن حق مثلي أن يكلل بالمجد
وأن يغمر الحب الكريم فؤاده
جزاءً، وأن يعفى من الشك والصد

* * *

مضى العام وانجاب (الربيع) عن المنى
ولو أنَّ آلامي تباعدن عن عدي
ولو أنَّ أحلامي هي الهم والجوى
على عالمٍ بالثكل واليتم ممتد
تسربل بالظلمات وهي صواعق
وماشى الخراب الهول في الزمن الرغد
فصارت به الجنات نار جهنَّم
ويا ليتها! فالحرب تعدي وتستعدي
ذكرتك محزونًا جريحًا معذبًا
كأني ألاقي الطعن في معرك وحدي
وقد كفكف الحاني (الربيع) مدامعي
وإن زادت النسمات — ما شئن — من وقدي
فأحسست بالسلوى تسلسل في دمي
تسلسل ماء النبع في الظامئ الورد
وقد ناله لفح الهجير بقسوة
فعاد يفض العطر في نفح معتد
فهل لك أنْ تصغي إليَّ فربما
أذبتُ فؤادي في النشيد بلا عود
كما ذاب عطر الورد في بسماته
وداعًا لمن يهوى ومات بلا حمد؟!

* * *

ويا جارتي ما أبعد القُرب بيننا
وذلك خوفي صير القرب كالبعد!
أناجيك في دقَّات قلبي والهًا
كأنَّ فؤادي طائرٌ رفَّ في القيدِ
يحن إلى من قاته وأفاءه
ولو أنَّه في أسره ضائع الجهد

وأخشاك رغم الحب، لا عن ضلالة
ولكن كخوف القانت الواله العبد
وكم تمتمت نفسي بشعر محبب
أغرده في خدرك الساحر الوعد
فلما تلاقينا نسيت ضراعتي
ولم تبقَ لي إلا حشاشة منهد
وقد حالت الأنفاس شعري وحدها
وكم تحمل الأنفاس من قُبَل عندي
إذا لم تترجم في لُغى الحب فالهوى
سيغفر ما أودى بشاعرك الفرد!

* * *

بروحي من أحلام عمري ساعة
جلست وموج البحر مثلي في زهدي
على الشاطئ المسحور أنَّت صخوره
وغنت به الأمواه للحجر الصلد
أراقب عن بعد جمالك ناشرًا
على الماء ألوان الرشاقة والصيد
فيغنم عشاق دعابتك التي
تخاطفها مثل الجواهر مستجدي
وأقنع بالحلم البعيد ووحدتي
كأنَّ حيائي قام دونك كالسد
ولكن خيالي لم يُذَلِّلُه حائل
فنال من القد المنعم والخد
وسابق موج البحر في وثباته
وبز شعاع النور في اللهو والجد
فكنت على بعدي المنعم ظافرًا
بما لم ينل منك المقرب والمسدي

أتوا بالهدايا الحاليات رواقصًا
وأخفيت قرباني من الطاهر الود
ولم تلمحيني في تلاهيك حينما
تحدثت الأمواج للكثب الجرد
وقد نثرت فوق الرمال تحية
من اللؤلؤ الغالي الذي جل عن عقد
تلقفها شعري وكاد يصوغها
لحسنك معنى لا يقاس بما تبدي
ولكن دنا العاتي الغروب فلم أفق
من الحلم إلا بعد أن فاتني رشدي
وقد ردد الموج الشجي تأوهي
وجاوبه في خطوه الحارس الجندي[1]

* * *

يعيش على الوهم المجنح شاعر
وكم باعه للوجد حينًا وللسهد
ويرضى بأدناه عزاء ونعمة
على حين لا يرضى بدنيا من السعد
له كبرياء المستهين بما يرى
ووثب خيال المستعزِّ بما يسدي
لئن صاحب الحرمان يدميه نصله
لقد آثر التعذيب حرًّا على الضمد
لئن أعرضت عنه الغواني لقد شدت
بتقديسه الربات في عالم فرد
تنزه عمن حاربوا الفن والهوى
وأولهم من لو درت قدست عهدي

[1] حارس الشاطئ.

ولـم تـتـكـلـف كـل مـا هـو مـتـلـفـي
ولـم تـسـقـني الـصاب الـمموَّه بـالـشـهـد
ولـم تـتـحـدث عـن نـشـيـدي وروعـتـي
بـحـب وإعـجـاب كـأنَّـهـمـا ضـدي!
ولـم تـدخـر أنـسًـا لـمـن عـاش عـابـدًا
مـفـاتـنـهـا ثـم انـتـهـى شـبـه مـرتـد

* * *

لمن فِتن الحسن الذي جلَّ عن حد؟
لمن شغف القلب الذي صين عن ند؟
إذا لم يكن هذا الجمال لشاعر
فما لي على فوضى التهافت من رد
حرام ضياع الورد في غير أهله
وظلم ممات النور والعطر في اللحد!
ولست ألوم الواردين تهافتوا
ولكن ألوم الحسن يعبث بالورد
وما أفسد الإحسان إلا ابتذاله
ولا قدر الإحسان إلا على قيد
سيأتي زمان تندمين على هوى
أضعت، ويا للحب ضاع من الأيدي!

* * *

ولكنَّها أصغت إليَّ بروحها
على النأي، والإيحاء للروح قد يعدي
كأنَّ ولوعي زاجر ليس ينتهي
يحاورها باللطف حينًا وبالنقد
ويلقي حواليها الشباك رقيقة
فما كان عن صيد الفراشة من بد

فلمَّا التقينا بعد هجر وترحة
وكنت افتقدت الحب في القلق المردي
أعادته مبعوثًا وضيئًا مرفرفًا
كما رفرف الفجر الوليد على المهد
فهل يستعيد الحب ماضي رجائه
ويسمو على الحرمان والخوف والحقد
ويبني لنا ملكًا يعز نواله
على غير فنان طليق من القيد
أم المثل الدنيا تهد مثاله
وترجعه نهبًا لأيامه التلد؟!

١٩٤٣

دمعة وابتسامة

(١) كتاب خليل مطران بك

القاهرة في ٢٢ أبريل سنة ١٩٤٢

عزيزي النابغة الدكتور احمد زكي ابو شادي

جاءني كتابك وانا في شوق اليك هو شوق الاب البار الى ابنه الحبيب وشوق الصديق الصدوق الى من يوده بقلبه ويكبره بعقله وقد حرم لقاءه زمنا مديدا.

لقد اسدى الي الاستاذ احمد محرم [illegible] يدا بان ذكرني لديك وكان سببا في وصل ما انقطع عني من انبائك السارة. فشكرا له [illegible] العربية [illegible] واديبها الكبير.

كتابك - وما أحب كتابك - اعاد الى نفسي حلاوة ذكريات من ايام المرحوم والدك العظيم. ومن تلك الذكريات انك لم تكتب الي قط الا وقد احدثت [illegible] وفي رسالتك اليوم [illegible] وراء [illegible] فان استعدت [illegible] ما افقدني علو السن من النشاط فالفضل في ذلك عائد اليك وما اقل بجانبه الثناء عليك.

لا تحرمني يا ابني الحبيب زيارتك ولو دقائق معدودة اذا جئت القاهرة وستلقى بهذه الزيارة قلبا في نبضاته نبضات قلب ابيك رحمه الله

تقبل ازكى تحياتي واصدق [illegible] ودم سعيدا معافى موفقا [illegible] المخلص

خليل مطران

مصغر عن الأصل.

(٢) رد صاحب الديوان

دمعتي وابتسامتي توأمان وسكوتي عذاب رُوح يُعاني
ليس قصف المدافع الليل حولي وصفير القنابل المتداني
والخراب الذي تطاير قربي وصراخ الورى بكل مكان
وعويل النساء حول الضحايا وبقايا المتاع والجدران
والظلام الذي يكفن دنيا ي، وقد عريت عن الأكفان
ليس هذا، وليس ذا ك، ولا الحرب بأهوالها لنا كل آن
بالتي تلجم المحب لك البا قي على العهد في مدار الزمانِ
إنَّما ملجمي تعذِّب وجداني لأهلي، لشعبنا الغفلان
الذي لم يزل على اللهو، مفتنًا ولو ضاع في افتنان الجبان!
يا صديقي ويا إمامي وعمِّي وملاذي كأنَّه دياني
عش مديدًا بصحة وحبور وأعرنا خوالد الألحان
ليس كتبي وليس شخصي سوى بعـ ـضي، فيكفيك منتهى إيماني!

١٩٤٣

مجدا

(تحية للطفلة العزيزة كريمة الصديق الأستاذ الدكتور حنا برسوم.)

مـجـدا يـا مـجـدا ستبلغين المجدا
تبسمي يا شاعرة إلى الحياة الزاهرة
واستقبلي الأعواما النور والأنغاما
والأمل المستعذبا وصفو أحلام الصبا
واستعجلي الأياما واستبِقي الأحلاما
لتدركي (مصباحا)[1] استأذنا المفراحا
وتنعمي بجلسة من أنسه أو زفة
كأنه (الرشيد) مؤله معبود
تحفة القيان والحور والولدان
ويرتجي في (المعهد) إمام دين مفرد
يوزع الأنس لنا كالشهد حلوًا يُجتنى
ولا يبالي بالورى ولا بدنياهم درى
يحيا حياة الآلهة لا عيش أرض والهة
ويشرب الأنخابا فيرقص الأربابا

[1] الدكتور عبد الغني مصباح — رجل الظرف والمرح.

فأسرعي يا طفلتي إلى المجاني الحلوة
أبوك مثلي منعم بـفـنـه ومـغـرم
وإن يكن مستأثرًا بـسـره مـفـاخـرًا

١٩٤٣

بسمة الأرض

(مهداة إلى ابنتي العزيزة هدى.)

بسمة الأرض لوجداني معانٍ كم أراها
كنزتها مهجتي الفرحى إذا فاتت سواها
والربيع الحلو يسقيني سناها وجناها
فإذاها في صميم النفس تحيا في رؤاها
جسمتها صلواتي وحناني لهواها
مثلما الصوفي في وجدانه شام الإلها!

* * *

يا ابنتي، يا «طفلتي»، يا من مسرَّاتي رضاها
إن شببت الآن فالأعوام في ماضي مناها
كلما جاء ربيع بهواها نتلاهى
ذاكرين «الطفلة» الحلوة نورًا وانتباها
وسألنا أمنا (الأرض) رضاها ودعاها
فتجلت في ابتسام وأشاعته شذاها
وتقاسمنا على حبك دنيا من نداها

١٩٤٣

عابر سبيل

الربيع

إصدحي يا خواطري وامرحي يا مشاعري
وارقصي رقص حرَّة غـالـبـت كـل آسـر
كل حـلـم عـشـقـتـه عـاد حـيًّا لـنـاظـري
جاء في موكب سمَا (بالربيع) المجاهر
لم يعد بعد خافيًا سـرُّه عـن سـرائـري
لم تكن روحه سوى روح فـن مـسـامـر
جاء سـمـحًا مـغـردًا سـاحـرًا أي سـاحـر
أشرب النور والهوى مسرفًا وهو عاذري
وهـو يـعـطـي كـأنَّـما ردَّ ديـنًـا لـخـاطـري
قلت: مهلًا! وإن أكن ظامئًا غير صابر
وادخر بعضه، عسى يرتوي منه هاجري
فـيـنـاجـي صـبـابـتـي بـهـوى مـنـه نـادر
نـتـلاقـى وخـمـره بين همس الأزاهر
قال: مهلًا؟! ومن أنا غير إحسان عابر؟!
لم تفرق سماحتي بـيـن عـان وقـادر
لم أسوف ولم أكن بـالـبـخـيـل الـمـحـاذر

لـم أحـاسـب مـبـدًا   خاطفًا من جواهري
أجلب الفرحة التي   هـي دنـيـا الـبـشـائـر
كل شـيء مَـسَـسْـتـه   ماس في سمت قاهر
إنَّ حـبـي عـبـادة   لـم تـلـوث بـكـافـر
إنَّ حـظـي رسـالـة   ألـفـت كـل نـافـر
إنَّ عُـمـري هُـنـيـهـة   لـلـمـنـى والـنـواظـر
وهـو عـمـر مـجـدَّدٌ   في نهى كل شاعر!

١٩٤٣

الوفاء

(تحية حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النَّحاس باشا.)

مغاني (اسكندرية) إن أضاءت ... فمن شوقٍ إلى الحر الزعيم
لقد حجبوا نوافذها[١] فشعت ... بتحنان الحميم إلى الحميم
وحيتك (الطبيعة) حين حيت ... كأنَّ البدر في عيد مقيم
إذا عيب الجحود فأيُّ عيب ... إذا غمرتك بالحبِّ الصميم
وإن عبدتك منقذها المفدى ... ولم تعبأ بشيطان رجيم؟

١٩٤٣

[١] إشارة إلى إظلام المدينة إبان الحرب الكبرى.

الصيف

(عند شاطئ إستانلي برمل الإسكندرية بعد غيبة أعوام.)

ما للصخور العاريات تدثرت بالعشب حين الغانيات عواري؟

فارقتها في رقصة وتجرد والموج بين معانق ومواري

ورجعت أرقبها فلم أر عندها إلا شعور السخر باستهتاري

لم يا صخور وقد وصفتك قبلما حياك من وصفوك من أشعاري؟

إن كنت زاهدة فإنِّي زاهد والزهد لم يسلم من الفجار

حين التعبد والحنان تلاقيا في الفن وانصبا مع التيار

(الصيف) أقبل فاخلعي لحنانه ما ألبستك يد الشتاء الضاري

واستقبلي الأمواج مثل مشوَّقٍ قد عاد بعد لواعج الأسفار

وتشربي الأضواء فهي ذخيرة ومن الضياء ذخائرٌ وعواري

هذي الجسوم العاريات هياكل للحب بين النار والأنوار

لا تسأمي نظرًا إليها إن وفت للفن واحتكمت على الأنظار

وتبتلت فيها العقول وحومت فيها القلوب بجنة معطار

وتخطرت و(الصيف) فرحان بها وكأنَّها حورية الأسحار

أهدى إلى الشعراء من آلائه ما صُنَّ للفنان من أسرار

في كل لون من ظلال حرة ما يستهين بطائش الثوار

أنا ما أثمت بنظرتي وتصوفي في هذه الألوان والآثار

فيم (الطبيعة) إن جحدت بناتها؟ فيم (الحياة) استسلمت لإسار؟

فتَسمَّعت لتوسلي، وتجاوبت   وتـأمـلـي، وتـأثـرت بـحـواري
وتلمست شمس الغروب فأعتقت   مـن دنَّـهـا الـمـكـنـوز لـلـخـمـار
حتـى إذا شـربـت تـوهـج لـونـهـا   بـالـنـار وارتـفـعـت علـى الأحجـار

١٩٤٣

يوم الجامعة

(حفاوة جامعة فاروق الأول بالرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا وبرجال حكومته في الحفلة الختامية لعامها الدراسي الأول يوم ٧ مايو سنة ١٩٤٣م.)

اليوم يوم تحية وفخار … تاهت مآثره على «الآثار»
حفل الزعيم وصحبه بندائه … ونداؤه كالنور والنوار
والنور كان ولم يزل في قدسه … للعلم خير لغى وخير شعار
فاعتز من إعزازهم لندائه … وازداد إكبارًا على إكبار
كل الجوارح شاخصات نحوه … في متعةٍ وتأملٍ وحوار
ودعا إليه العبقري أديبنا … (طه)[1] بوثبة خالق جبار
فاستلهم المتوثبون شعوره … وأضاف (للأيام)[2] يوم فخار
وأثابه خلق الوزير ومن ترى … (كنجيب)[3] في الأسماع والأبصار
يتساندان جراءة ورجاجة … في دفع مظلمة ورفع عثار
ويؤرخ الإصلاح من تاريخه … فحياته كنز من الأسفار
لم لا وهذي نفحة من جهده … وضَّاءَة بالحب والإيثار؟

[1] الدكتور طه حسين بك.

[2] كتاب (الأيام) للدكتور طه حسين بك.

[3] أحمد نجيب الهلالي باشا.

شرفت بها (الإسكندرية) مثلما   شرفت بسيرة جدها المغوار
ما كان يجمل بي التغني باسمه   وأنا الأبي على رضى الأقدار
وهو الذي قد ظل عمرًا ثائرًا   وأنا الطليق بموكب الثوار
لكن تأدية الحقوق أمانة   وكذا الأمانة شيمة الأحرار!

* * *

يا (مصطفى) اليوم تجمعنا المُنَى   منظومة في حبك المختار
باهت بحبك أمة لا عصبة   فسما بجامعة سمو منار
ما أنت تعشقه يعيش ويعتلي   ولَوَ انَّه ملقى من الأحجار
فإذا وهبت لنا رعاية ماجد   فلنا ازدهاء الكوكب السيار
ولنا ضمان الخالدين وما لنا   عن غاية الإحسان من أعذار
أثني عليك ولا أطيل فإنَّما   أغلى الثناء يصان في إضماري
من كان ينعم بالمحبة حوله   أغنته عن مدح وعن أزهار
من كان يقرن بالنزاهة فضله   أبدًا فما أسماه عن أوطار
من كان يُعطي الشعب من إيمانه   لبَّاه في بذل وفي أخطار
كم خضت أشتات المعارك هازئًا   ورجعت لم يمسسك نقع غبار
تطأ الحوادث والصعاب وترتقي   هَامَ الزمان مكللًا بالغار
ومصارع الأهواء تجتاح الورى   ولطالما نزحوا مع التيار
ولكم بكينا من هووا بغرورهم   وصمدت أنت ودست صرعى العار
يا طالما علمتنا ما ينبغي   للعالم المتعلم الصبار
واليوم مجلى بعض ما أسديته   واليوم مجنى الشهد للمشتار
إن جئت أنشد للولاء تحيتي   فهي الوفاء أطلَّ من أشعاري!

١٩٤٣

الخائن الجبار

(رفع صاحب الديوان هذه الأبيات إلى زعيم مصر مصطفى النحاس باشا الذي يضم حزبه التقدمي «الوفد المصري» العديد من الإقطاعيين كسائر الأحزاب المصرية الرئيسية.)

إلى خليفة (سعد) في مآثره — وفي محبة (مصر) ملء خاطره
دعاء قلب وفيٍّ لا يُغيِّره — بُعد وقُرب، فماضيه كحاضره
لا يشتهي غير إعزاز لأمته — وكل فخر لها معنى مفاخره
ما بالها أصبحت نهبًا لكابرها — وهو ابنها المتمادي في كبائره
من علم الخائن الجبار[1] يرهقها — وأنت للشعب حام من جبابره
حتام تذعن للإقطاع صاغرة — ومثل أنيابه دامي أظافره؟
لا يستوي أن تغيث الشعب من خطر — وأن تبيح عديدًا من مخاطره
ولا المباهاة في فقرٍ وفي مرضٍ — على الجهالة في أغلال آسره!

١٩٤٣

[1] أي الإقطاع.

فن الجحود

تعودت عرفان الجميل ولا أرى مبالغتي في الحمد تصغر من ديني
كأني استطبت الفضل للناس كلهم عليَّ وإن عاشوا على الغدر والمَين
وكم فاخروا بالسيئات وأسرفوا جحودًا، وهاموا بالنكاية والغبن
أحاول تعظيم الأيادي التي لهم وأصغر من فضلي عليهم وأستغني
كأنَّ شعوري أنْ أراهم أكارمًا، وإنْ عجزوا، حظ تمثل في عيني
فلم أرَ منهم غير إصغار نخوتي وجازوا سموي بالتحامل والمنِّ
لدن قدَّسوا من سامهم كل نكبة ومن بادل الإحسان بالكيد والطعن
كذلك حال النَّاس في كل بيئة وقد حسبوا أنَّ الجحود من الفن!

١٩٤٤

حواء تندم!

جثت تلهم البحر أسرارها
ويلتهم البحر أنوارها

و(آدم) في قربها شاعر
تناسى الجنان وأنهارها

يغازلها لاعبًا صاخبًا
فيجني من اللهو أثمارها

ويقطف من أنسها للحياة
وتغنم من حبه ثارها

وقد سقط الموجُ بعد الكلال
صريعًا فهيج تذكارها

وقد طاردته بنات البحار
فمات وفارق مضمارها

ولم ترثه غير لهفى الأشعـ
ـة وهي تبدد أعمارها

فتسكبها في الحصى والرمال
وقد ذوبت فوقها نارها

ويرجع مبعوثه للغرام
ويفني متى نال أبكارها

وتبقى الرواية لا تنتهي
ولو أسدل الليل أستارها

وقد سبحت في المياه الصخور
عرائس تنشد أشعارها

فما بقيت برهة في مكان
ولم تصحب الموج زوارها

تراوغه وهي في رقصها
تمثل للحب أدوارها

كأنَّ (الطبيعة) لما انتشت
أفاضت على الكون أسرارها

وقد أسكرت كل ما حولها
فغنَّى ومجَّد خمَّارها

فقبَّل (آدم) حوَّاءه
وألهم (حواء) أوطارها

فقالت وقد ثملت من هوى
كما عانقت باسمه جارها:

«ندمت وما ندمي للفراق
على جنة جزت أسوارها

وأصبحت من بعدها حرة   وما حررت ثم أطيارها
ولكن لأنِّي لم أجترئ   قديمًا ونادمت أشجارها
فضيعت عمرًا بها طائلًا   كأنِّي ساويت أحجارها
وأين الجنان — جنان السماء   من الأرض تكرم من زارها؟!»

١٩٤٤

حوريات الماء

من وحي شاطئ استانلي برمل الإسكندرية

يا للهوى والغواني الساحليات ... اللاعبات بلبي المستحيات

الخاطرات أمامي في مغازلة ... غناء في طرف للفن أشتات

عفن الملابس إلا ما تبوح لنا ... وسرن للفن آيات وآيات

وللرشاقة لون في تعثرها ... بل في تعثرها أحلى الرشاقات

في موكب من أمان شبه ربات ... ومعرض من معانٍ عبقريات

تلقَّف الأدب المحروم متعتها ... نبع الحياة لأنضاء وأموات

وأمعن النظر المشدوه محتسيًا ... خمرًا ونارًا بلذات ولذات

وتابع القلب دقات خطون بها ... دق النواقيس في مجلى العبادات

رفت أنوثتها في كل جارحة ... ورف قلبي لها في طي آهاتي

لم تلفح الشمس هذا الجسم عابثة ... إلا استحال إلى خمر وجنات

وما تأمل لحظي في مفاتنها ... إلا وتاه سعيدًا في ضلالاتي

يا ضيعة الحسن واللون الرفيف به ... إنْ لم يخلد بأشعاري وآياتي

ولم يسجل بألحان معطرة ... من الحياة ولم يصقل بمرآتي

ولم أشمه طويلًا في مناجاتي ... ولم أذقه شهيًّا من سلافاتي

ولم أطعم ترانيمي بنفحته ... حتى أعيشَ بها في عمري الآتي

حتى أهيم كموج البحر منطلقًا وقـد يـزل ولـكـن غـيـر زلاتـي!

١٩٤٤

الأمواج

هدهدي بالهدير أيتها الأمواج قلبًا إلى حماك اطمأنا
واسكبي الراحة الحبيبة فيه، أنت برء لمثل قلبي المعنَّى
تغسلين الحصى، وتلك قلوب بُعثرت في الرمال حتَّى دفنا
ثم جددتها نشورًا وطهرًا، ثم أشبعتها حنانًا ولحنا
وأنا الخاسر الذي جاء يستجدي حياة لديك هيهات تفنى
ما ترانيمك الشجية إلا ما تمنَّى السلام لمَّا تمنَّى
تتجلى كثورة وهي أمن، وأحبُّ الثورات ما عاد أمنا
مهرجان الضوء نشوان فيه وتغنَّى الهوى به ما تغنَّى
ما له مبدأ وليس انتهاء لقلوب تراه حسًّا ومعنَى
كم رويت الغرام عن سالف الدهر وما زال ما تقصين فنًّا
وتمرين في ثوانٍ بأعمار وتلقين بعد شيبك دفنَا
وتكرين للصبى وتعودين بأسنى من الجمال وأسنى
ورتيب الحياة مهما يُحاكي بعضُه بعضَه تنوع حسنا
هجرت مهجتي الحزينة دنيا كلُّ صفو لها تقاضته دينا
وانتهت حرة إليك فما خاب لها مأمل ولم تلق مينا
كل ما قلته جميل وصدق لو أقمنا للصدق والحسن وزنا
وبحسبي أنِّي أسيرك كالضوء دفوق الشعور أحيا وأغنى
حالم فيك لست أرضى لأحلامي بتفسير فيلسوف تجنِّي

أنا حيٌّ مستغرق في الهدير العذب لا يُستعاض وحيًا ولونا
وكأنَّ الأرباب مثلي حواليه أصاخوا وما اشتهوا عنه بينا
فثملنا بما حكى واستعدنا، وحديث الأنام لغوٌ لدينا
وحياة الأرباب ليست تُعلَّى ببيان الورى وليست تدنَّى!

١٩٤٤

معركة الحب

ولي غادة ألهتها الحياة   وقد أبدع الحب تمثالها
حييتُ أقدِّسها شاعرًا   يُغنِّي بها ويُغنِّي لها
وينأى وإن كان في قُربها   كأن على النأي إجلالها
يُداعبها وهي إلهامه   ووحي الروائع إن قالها
وتغمره بالرضى تارة   فيلقى الجنان وسلسالها
ولكنَّها حرَّمتها عليه   وإنْ حلَّلت دائمًا آلها[1]
فينعم وهو الكسير الحزين   كأنَّ الحقائق ما خالها
فعاش على الوهم في نفسه   وهدأ بالوهم بلبالها
وإن ضاع في فنه ما أضاعت   بحرمانه العمر آمالها!

* * *

ويوم أفاء عليه الشتاء   جمالَ (الطبيعة) فاستألها
كأنَّ جميع الفصول استجابت   نداءً له ونداءً لها
تلألأت الشمس في زهوها   ولاطفت السحب أطفالها[2]
وطافت نسائمه الساحرات   عذارى تهدهد أمثالها

---

[1] آلها: سرابها.

[2] كناية عن أشعة الشمس.

فتوقظ من زهرات نيام حسانًا تخيرن سربالها
وترقص أعشابها نشوة فتغتفر الأرض إمحالها
وتنعش حتى الجماد النئوم فيزهى ويعرض إجمالها[٣]
أجبت (الطبيعة) لما دعت وكانت فتاتي إقبالها
حججنا إليها فلمَّا مثلنا نسينا الحروب وأهوالها
ولو أنَّ نفسي تُعاني الحروبَ وكم قطع الهمُّ أوصالها
فينقذها الفن بالمعجزات وقد أصبح الفنُّ مثَّالها
يُعالجها بالهوى العبقريِّ ويرفع بالسحر أحمالها
ويخلقها من جديد مرارًا ويبني ويهدم أطلالها
ويسعدها ببنات الخيال يحققن في زورة فالها
أطلنا التأمل والفلك تجري عرائس تسحب أذيالها[٤]
ومن حولنا الغنم الراتعات حوى بالنا ما حوى بالها
فلمَّا رأيت فتاتي انتشت وأصبح حالي إذن حالها
هويت أعانقها شاعرًا وألثمها لثم من نالها
وما الحسن إلا لأهل الفنون وما الحبُّ إلا رسولًا لها!

١٩٤٤

[٣] إجمالها: تجميلها.

[٤] من مشاهد ترعة المحمودية بجيرة الإسكندرية.

قلبٌ لا يشيب!

عوذت قلبك يا حبيبي   من أن يُكدَّرَ بالمشيب
ذنبي لديك تلهفي   هل ذاك ذنب يا حبيبي؟
ما حيلتي في قلبي الـ   ـظمآن للنبع الحبيب؟
تجري السنون ولم يزل   طفلًا تنزه عن مشيب
يلهو ويلعب هائمًا   لكن بأحلام الأديب
من علَّم القلب الصغيـ   ـر عبادة الحسن العجيب؟
وتبتلًا كتبتل الـ   ـصوفي ذاب على الصليب؟
مرآك جنته وصو   تك لا حنين العندليب
أولم تُشاهد حلمه   في يقظة كالمستريب؟
يخشى بعادك حاسبًا   دقات قلبك في وجيب
متهللا لك، لا يملْـ   ـلُ من التطلع كالغريب
يرنو إليك بروح منـ   ـدمج بروحك يا حبيبي
ويتمتم الصلوات كالنْـ   ـنَائي بمجلسك القريب
في كل توديع عذا   ب، بل فناء في لهيب
مهما تجلد موهمًا   إنَّ الشروق من المغيب
لو تنصف الأرباب لم   تتركه للوجد الرهيب
وهو الذي خلقته رو   ح الفن للفن الأريب
خلقته من نور ومن   شدو ومن زهر وطيب

أنت المحاسب عنه إن　　لجأ الغرام إلى حسيب!

١٩٤٤

قبلة أعوام

هــذا حــنــيــنــي إلــيــك   جـمـعـتـه مـن سـنـيـنْ
هــل تــخــذلــيــن لــديــك   عــزيــز هــذا الــحــنــيــن؟
أهــواك أهــواك حــتــى   أصبحت أخشى اللقاء
وبــات شــعــري صــمــتًــا   وبـــات صـــمـــتـــي دعـــاء
أهــواك مــن كــل قــلــبــي   ومــن جــوارح نــفــســي
ومــا ابــتــهــلــت لــربــي   إلا تــمــلــكــت حــســي
وكــنــت غــايــة نــعــمــى   تــألــقــت فــي خــيــالــي
فــمــن أحــبــك يــومًــا   لم يرضَ غير المحال!

* * *

يا فرحتي في شجوني   ونـعـمـتـي فـي هـمـومـي
ونـشـوتـي فـي جـنـونـي   وجـنـتـي فـي جـحـيـمـي!
كم يسأم الناس حسنًا   مـتـى رعـاهـم بـعـطـف
وقــد عــبــدتــك فــنًّــا   فصار هجرك حتفي!
مــا لــي ومــا لــلأنــام   وهـم بـخـلـق الـعـبـيـدْ
يا من خلقت غرامي   فـمـا لـه مـن مـبـيـد
وكــلــمــا مــرَّ عــام   نـمـا غـرامـي شـبـابـا
ولــو حــوانــي ظــلام   وخــان غــيــري وشــابــا
هــذا وصــالــك أحــيــا   موتى الأماني الضحيهْ

خلقت بالحب دنيا   للسحر والعبقريهْ
أسائل (الحظ) عمَّا   أباحه من جناها
وهل سأعرف يومًا   كما — اشتهيت — مداها؟
فيضحك (الحظ) لهوًا   ولا يحير جوابا
أكان ذلك سهوًا   أم عد حبي عابا؟
أسائل (الحظ) حتى   يبر بي أو يلين
حتى أجاب وأفتى   أنِّي من الملهمين
وقال: دونك وعدي   أنجزته فتقدم!
لمَ التساؤل عندي   وأنت بالحب أعلم؟!
هذا الجمال وفيٌّ   وأنت تشكو الطواف
فما الأبيُّ أبيٌّ   إلا على من يخاف!

* * *

ومذ أجازت هيامي   بنفحة من وفاء
جعلت لثمي كلامي   فلم يمت في الهواء!
فحاسبتني عسيرًا   لكنْ حساب الكريم
وبادلتني شعورًا   من الحنان المقيم
قبلتها وكأني   رشفت عمرًا جديدًا
ونلت مجدًا لفني   وحزت كنزًا فريدًا
قبلتها وهي سكرى   بنشوتي في يديَّ
وكان لثمي سكرا   بدا على وجنتيَّ
لثمتها وهي ظمأى   مثلي، وتُخفي الظماء
وما ارتويت لأنأى   لو كان يُجدي ارتواء
تنفست عن عبير   عبير زهر أسير
واستسلمت في كثير   من الدلال الكسير
وأغمضت دون عيني   لحظًا رفيق النعاس
هيهات تسديد ديني   لو أنَّ ديني يُقاس!
يا للشفاه اللواتي   نبضن بالحب شعرًا

وهــبــتــهــن حــيــاتــي رشــفًــا أســيــرًا وحــرًّا
ووســـدت فـــي ذراعـــي رأسًـا زهــا بــالــجــمــال
فـكـيـف كـيـف امـتـنـاعـي عـن الـسـلاف الـحـلال؟!

١٩٤٤

أنانية الجمال

الصبا والجمال يجتمعان في محياك روعة للبيان
أتملاكِ ساهمًا شارد اللب بروح الصوفي والفنان
وأرى لذتي بقربك حرما ني، وبعض اللذات في الحرمان
وكأن العذاب أشهى جزاء للمحب الوفي والمتفاني!

* * *

ايه يا من لها غرامي مهما يخلق الدهر أو تمت بي الأماني
أنت روحي، وأي ذنب لروحي أن تناهت بعالم روحاني
أنت سيان في كيانك جسما وشعورًا مصورًا لافتتاني
وشعور الفنان دون حدود فعلامَ القيود في ميداني؟
إن تمنَّعت أي صبٍّ هو الأحـ ـرى بحسن منوَّعِ الألوان؟
وصلاة الفنان ملء احتضان الحسـ ـن لا في الصدود والامتهان
كم معانٍ يوحي بها الوصل للشا عر عزَّت من قبل، بل كم أغاني!
إن تناءيت أو تأبيت ضيعـ ـت على الفن فنَّ صبٍّ يُعاني
ليس شعر الحرمان مهما تسامى مثل شعر التجاوب الفتان
والجمال الذي يقدس لا ينـ ـسى حقوق العبَّاد في كل آنٍ!

* * *

إلفك العمر يا ملاذي وإلها مي ويا من غرامها ديواني

كم أضحي معذبًا، كم تسرِّيــ	ــن، وكم تُستطاب لي نيراني
لو قدرت الذي أكن من الحبْــ	ــبِ لكنت ارتضيت ما أرضاني
إنَّما أنت في سمائك والربــ	ــات فوق الورى وفوق الزمان
لا تبالين أن تضحي قليلًا	لحياة الورود والريحان
عذرك الجم أنَّ صفوك شيء	غير صفوي، وشأنه غير شاني
لغةٌ عذبة الطفولة تنسى	كل شيء سوى رضاها الأناني
فاعذريني إذا لجأت إلى (الأر	ض) وبدلتها وفيًّا حناني
شاكيًا منك، سائلًا طبها الشا	في، وأين الشفاء للولهان؟!

١٩٤٤

غرام وانتقام

رثاء أسمهان

أيـنـدثـر الـفـن؟! يـا لـلـقـدر ... ويجنى على الحسن حتَّى الحذر؟!
ويـغـرق فـي اليـم هـذا الـضـيـاء ... وكم طاف بالكون حتى عثر!
وكـنـا نـخـاف حـنـيـن الـقـلـوب ... إلـيـه، ونـخـشـى وثـوب الـنـظـر
كـأنَّ الـحـيـاة الـتـي ألـهـتـه ... أبت أنْ يـشـام بـغـيـر الـصـور
كـأنَّ الـغـنـاء الـهـوى والـشـبـاب ... وقـد مـثـلا سـرَّه الـمـدَّخـر
فـحـيـنًـا نـكـيـفـه بـالـلـحـون ... وحـيـنًـا نُـكـيـفـه بـالـشـرر
فـكـيـف تـبـدد؟! يـا لـلـمـمـات ... يضيع الكنوز ويبقي الحُفَر!

* * *

مـلـقـنـة الـفـن أحـلامـه ... وتـمـثـالـه الـرائـع الـمـبـتـكرْ!
وشـاديـة بـأرقِّ الـحـنـان ... وعـذب الـبـيـان لـحـسـنٍ نـفـر!
وعـاطـرةً بـأريـج الـغـرام ... تـمـثَّـلـهـا (الأرز) لـمَّـاً عـطـرْ!
وخـاطـرةً تـشـرئـب الـقـلـوب ... إلـيـهـا، ويُـصـغـي إلـيـهـا الـوترْ!
يـفـيـضُ الدلال عليـهـا الجمال ... أفـانـيـن يـهـفـو إلـيـهـا الـزهـرْ
ويـنـتـظـم الـحـسـن مـا يـشـتـهـيه ... خـيـال الـمـنـى ونـعـيـم الـبـشـرْ
كأنَّ (الطبيعة) منها استمدت ... بـهـاء الـفـصـول ونـور الـبـصـرْ

فمنها نضارة شدو الربيع ومنها حرارة صيف خطرْ
ومنها شذوذ الخريف الشريد ينوح ويضحك بين الشجرْ
ومنها جواهر ثلج الشتاء ولهو الرياح ولحن المطر
فكيف برمت بها في الحبور؟ وكيف يكون النَّعيم الضجرْ؟
مفاتن لم يمتلكها جمالٌ سواك، فلمَّا احتواها اندثر
كأنَّ مواهبك الرائعات بإعجازها تتحدى القدرْ
كأنك أنت التي نشأتها ولم تتجاوز حدود الصغرْ
فكيف إذا حالفتها الحظوظ وفاض الغدير وعمَّ الثَّمرْ
ولم تبتدرها عوادي الزمان فيُطوى الكتاب ويُنهَى السفرْ
فوا لهفة الفن مات العزاء! ويا لوعة الحبِّ، مات القمر!

١٩٤٥

رثاء أحمد محرم

(وجَّهه صاحب الديوان إلى عميد الشعر العربي خليل مطران بك.)

لم يبقَ فيِ النَّاس من خير ومن أدب … فمن أعزِّي إذن في شاعر العرب؟
ومن أرجِّى مثيلًا في مناقبه … سوى (خليل) عميد الشعر والأدب؟
حفظتما اللغة الفصحى كصونكما … مكارم الخلق عن عاتٍ ومغتصب
وكنتما فرقدي فنٍّ وفلسفةٍ … على وشائج لم تُوهن ولم تغب
إنْ قطع الموت أسبابًا مؤصلةً … فأنت واصل ما قد بتَّ من سبب
لك العزاء أمير الشعر، سيده … يا عارف الفضل من دانٍ ومغترب
في الشاعر الفحل يستعلي الخميس به … في نشوة النصر فوق الجحفل اللجب
المرسل الصيحة الكبرى مدويةً … والمنقذ الحق في شعر من اللهب
جمٌّ الإباء تراه في تواضعه … كالشمس دانت وما دانت لمقترب
من يستهين بها يلقى خصاصته … ومن يدين بها يُغنى عن الذهب
ضخم المروءة لم تقعد نحافته … به ولا جسمه الواهي عن السبب
في كلِّ يوم أياديه مرددة … ولو تقاصر عن جاهٍ وعن نشب
وكل حينٍ له شعر تتيه به … محافل الأدب العالي من الطرب
فللحماسة آيات مغلبة … في ثورة الحق لا في سورة الغضب
وللروائح في تاريخ نهضتنا … ما صاغ من عجب أو ردَّ من صخب
وللتغزل ما جادت أنامله … حتى استعاد (أبوللو) عصره الذهبي
وللتفلسف في تحليل مهجته … خوالد رنحت أعطاف مكتئب

يتلو بدائعه الراوون في جذل ويـنـعـمـون بـمـا أسـدتـه لـلـحـقـب
كـأنَّـمـا كـل بـيـتٍ جـاء يـورثـهـم كنزًا من الدر أو ذخرًا من الحسب!
أمـثـل هـذا يـعـفَّـي ذكـره كـسـلًا عن واجب، أو يُوفى جد مقتضب
والشـهـب تـسـقـط أشـجـانًـا مـحـرِّقـةً من النجوم ويشجى بارق السحب؟
إن جاز نسـيـان من لـلـه نـسـبـتـه ومـن يـمـد جـمـال الـكـون بـالـطُّـنب
فـأيُّ مـعـنـى لـدنـيـانـا وزخـرفـهـا ولـلـحـقـيـقـة إنْ عُدت من الـكـذب؟

١٩٤٦

رثاء زوجتي

ماذا تُفيدك لوعتي وبكائي؟ هذا فناؤك مؤذن بفنائي!

أسديت عمرك للحياة فما وفت ومضيت للأبرار والشهداء

لهفي عليك وقد أتيت مودعًا فبكيت فوق جبينك الوضاء

زاد الممات جماله وتناثرت مني الدموع عليك كالأنداء

كانت حشاشتي المذابة حرقةً وبقية المكنوز من نعمائي

فترنحت بفجيعتي، وتضوعت بسريرتي، وتلألأت بوفائي

وروت مُحيًّا كان جنة نعمتي وملاذ تفكيري ووحي ذكائي

وطرحت آلام الحياة عزيزة فبدوت بين سماحة وصفاء

وأقبِّل الوجه الحبيب، وطالما أودعت فيه صبابتي ورجائي

شمل السلام هدوءه، وتبددت غير السنين، وزال برح الداء

وأكاد أنسى للممات خشوعه لما نسيت تجلدي ومضائي

كم كنت أعلق بالخيال توهمًا وأرى الشفاء ولات حين شفاء

ويغالط القدر العتيَّ تفاؤلي وأنا الخصيم لخدعة ورياء

آبى اعترافًا بالممات كأنني لمَّا بكيتك قد أضل بكائي

أو أنَّ هذا الموت حق ثابت إلا على الأحباب والخُلصاء

أو أنَّ عيشي أنْ أراك بجانبي مهما هزلت فلا يهد بنائي

أعتاض باللمحات عن أغنية وعن الحديث العذب بالإيماء

وأعد أنفاسًا وهبت ذخيرتي وحفيف ألفاظ همست رخائي

وأمـوِّه الألـم الـدفـيـن وأتَّـقـي   عـلـمًـا بـه، وأصـده بـغـبـائـي
وأكـاد أقـسـو فـي مـجـانـبـة لـه   أو ليس جسمك رمز كل نقاء؟
متنزهًا عن كل ما شان الورى   مـتـرفـعًـا عـن عـلـة وعـفـاء
حتى صدمت، ولا كصدمة شاهق   مـتـحـطـم بـصـخـوره الـصـمـاء
فجننت من حزني وعفت حصافتي   ودفـنـت كل رجاحـتـي الـعـمـيـاء!

* * *

لهفي عليك زميلتي في رحلتي   وشريكتي في الصفو والضراء
لم أرضَ غيري أن يسير مشيعًا   أو أن تـوزع حـرقـتـي وعـنـائـي
وكتمت نعيك، كم أضن بذكره   وأحـوطـه بـنـهـاي واسـتـيـحـائـي
لـبَّـيت رغـبـتـك الـزكـيـة دائـمًـا   ووعـيـتـهـا نـبـلًا ولـطـف حـيـاء
وجعلت مأتمك الرهيب عواطفي   وبـخـلـت بـالـتـنـويـه والإفـضـاء
حتَّى تفجَّر بي الأنين ملاحمًا   وجرى النظيم بأدمعي ودمائي
ما كنت أحسب أنَّ يومَك سابقي   أو أنَّ أيـام الـحـيـاة ورائـي
كـنـا نـهـيـئ لـلـرحـيـل[1] مـتـاعـنـا   ونـنـسـق الآمـال غـيـر بـطـاء
ونـهـيـب بـالـدنـيـا لـتـشـهـد حـظـنـا   ونـهـش لـلأيـام والأنـبـاء
ونـرد عـاديـة الأنـام تـسـامـحًـا   مـسـتـغـفـريـن لـجـاحـد ومـرائـي
متسابقين لنملأ الدنيا سنى   بـالـحـب والإيـثـار والإيـحـاء
فـإذا رحـيـلـك لـلـنـوى، ووداعـنـا   لـلـحـظ، والـبـاقـي الـكـلـيـم ذمـائـي
غدرت بي الدنيا، كأنِّي لم أصغ   فـيـهـا الـثـنـاء، فـمـا أفـاد ثـنـائـي
ووهبتها — كرمًا — عزيز مواهبي   فجنت علي شهامتي وعطائي
الـيـوم أدرك أي عـبء فـادح   عـنـي رفـعـت ومـا مـدى أعـبـائـي
كم كنت أحلم بالهناءة والرضى   لك في نهاية عمرك المتنائي
وأود مـن قـلـبـي بـقـاءك بـعـدمـا   أفنى وأحسب في هواك بقائي
وأعـد عـمـرك وحـده عـمـري ومـا   أرضى سواك من الحياة جزائي

[1] الهجرة إلى أمريكا.

فتناثر الحلم الجميل وأقفرت ... دنياي من حلم ومن أضواء
وبقيت وحدي لا عزاء أرومه ... والذكريات تزيد من برحائي
يا طالما ناجيتها في نشوتي ... واليوم قد أصبحن من أعدائي
ما نعمتي فيها وأنت هي التي ... جعلت بصحبتها الأسى نعمائي؟

* * *

يا من فتنت بكل ما هو رائع ... وخلقت ألوان الجمال إزائي
ورسمت لي دنيا منوعة الشذى ... قدسيَّة الألحان والأصداء
وبثثت بي حب (الطبيعة) فاغتدت ... أمِّي، أضعت عزاءها وعزائي
يا من غناؤك شدوها وحنينها ... وصداه في قلبي الشجي غنائي
لما سكت تقاطرت عبراتها ... واستسلمت للوعة الخرساء
ومضى الربيع مع الشتاء فلم أجد ... إلا مظاهر وحشةٍ وخلاء
تبكيك أخلص من وفت لروائها ... وتصوفت بمروجها الغناء
ورأت بها الخير اللباب فما شكت ... منها وناجتها أرق نجاء
وتناولت ألق النجوم فأترعت ... منه دنان الحب للشعراء
كم ألهمتني من عيونك صورة ... جمعت أحب عواطف ومرائي
وتبسم تتبسم الدنيا له ... ويغيب عن معنى وعن خيلاء
ورشاقة معسولة ملحونة ... كقصيدة خلابة عصماء
كم كنت أهتف بالنشيد ولم يكن ... إلا خطوط جمالك الوضاء
تجري اليراعة في يدي مزهوَّةً ... بتغزلي ويهزني إملائي
مترنمًا بالحب بين ولائم ... للزهرِ والأمواه والأضواء
وإخال في دعة المروج جناننا ... وأشيم في ألقِ الغدير سمائي
أيام كنَّا والشبيبة والهوى ... حلفاء في أمنٍ من الغرماء
أيام كنَّا نستعيد ثراءنا ... قُبلًا، ونضحك من غنى وثراء
أيام كنَّا الحاكمين بأمرنا ... الساكنين منازل الجوزاء
أيام كنا ذاهلين عن الردى ... نجري ونمرح في الربى الفيحاء
ونخوض موج البحر ملء دعابة ... متعانقين على هدير الماء
متحمسين كأنَّما خمر الصبا ... خمر الألوهة من أعز سماء

متلمسين بكل شيء لذة ... ومطوعين المستحيل النائي
وإذا غضبنا عاد حبُّك غافرًا ... وتعثرت شكواك عند ندائي
وفرحت بي فرح الحبيب بإلفه ... قد عاد بعد مخاطر هوجاء
عشنا السنين كأنَّها أنشودة ... علوية جلَّت عن الضوضاء
متجددين، وإذ فقدتك لم يكن ... فقدي لغير فتاتي الهيفاء
من رامها أهل الفنون نموذجًا ... للمبدعين ومن لها أهوائي
من صوتها الحلو الشجي سلافتي ... وحنانها العذب السخيُّ دوائي
من لم تدع غير البشاشة وحدها ... تفشي خواطرها لنقد الرائي
من أشربت حب الدعابة سمحة ... واستضحكت لمصاعب الأشياء
من لم ترَ الدنيا سوى تغريدة ... فأبت هواجسها أشدَّ إباء
من لم تردد غير آمال الصبا ... لتردني لطلاقتي ورضائي
من عشت أفديها بكل جوارحي ... فإذا الفداء يهون وهي فدائي
من علمتني أن أقدِّس واجبي ... مهما شقيت فأستطيب شقائي
من لم تودع في السقام وفاءها ... للنَّاس حين مضوا بكل وفاء
من لم تفارقها الشجاعة مرة ... حتَّى الممات، شجاعة العظماء
فمضت وخلتني وحيدًا عابرًا ... قفر الحياة أنوء بالأنواء
هيمان، قربك وحده مستنقذي ... ظمآن، ليس سِواك رِيًّ ظمائي
أقتات بالحزن المبرح راضيًا ... وأعاف كل ملاحة وسناء
وأضعت فني بعد موتك في الأسى ... وكأنَّما صور الجمال بلائي
من طالما ناجيتها متغزلًا ... غردًا، فمات بهاؤها وبهائي
كانت لروحي منك أنس مدامة ... ومجال أشواق ونبع صفاء
ومثلت أنت بكل ما أحببته ... فالآن أين تهافتي ونجائي؟
أين ابتسامتك الشذية بالمُني ... والنور حين أهيم في الظلماء؟
أين ابتداعك للحديث تفننًا ... وتسلسلًا يُغني عن الندماء؟
أين اغتباطك بالمروءة والندى ... والعطف والغفران والإسداء؟
قبرت كما غاب النهار أشعةً ... وكأنَّما أشلاؤها أشلائي
وتركت في دنيا القساوة والأذى ... متهالكًا أمشي على الرمضاء!

* * *

قالوا تصبر! إنَّ حولك رفقة ... منها، وحسبك صفوة الأبناء

ورثوا مكارم خلقها وسماتها ... إرثًا تدلُّ به على الآباء!

يا ليتهم عرفوا شمول عواطفي ... ووفاء وجداني وصدق ولائي

شيم شقيت بها، وما عفَّ الورى ... فأثارهم شممي وفرط إبائي

وبقيت أسخر من جراحي هازئًا ... بفواجع الآلام والأرزاء

مستلهمًا من لم تدعني مرةً ... في الحادثات أضيق بالأحياء

فالآن بعد ذهابها ومصابها ... لم يغنني شممي ولا استعلائي!

* * *

تمضي الحوادث والسنون وتنقضي ... أمم على أممٍ صباح مساء

ويظل قلبي هيكلًا لكِ خالدًا ... أبدًا يرتل لوعتي ورثائي!

١٩٤٦

وداع مصر

كتاب من أستاذي خليل مطران بك

القاهرة في [illegible] مارس ١٩٤٦

عزيزي نابغة العلم والأدب الدكتور أحمد زكي أبو شادي

بعد التحيات الوالدية والأشواق القلبية

تلقيت كتابك وقد سررت به كما أسر بكل ما يجيء منك
غير أني أسفت أسفًا شديدًا للظروف التي حرمتني من إدراكك في
القاهرة وأرجو أن ييسر لي زيارة الإسكندرية قبل ١١ إبريل الآتي
ووطني نفسي على تهنئك قبل سفرك بالسلامة إلى نيويورك وأتمنى
على الله أن تكون رحلتك الأسعد وأن تكون ثمرات هذا المجهود
البديع منك خيرًا وبركة لك ولبلادك التي تفخر بك ولمحبيك
والمعجبين بك وهم كثر

وفي الختام أقبلك شوقًا وأدعو الله أن يحفظك ويحفظ
أولادك في نعمة وصحة موفورة

المخلص
خليل مطران

أهديت إلى أستاذي خليل مطران بك – ١٤ إبريل سنة ١٩٤٦م.

أودع (النيل) في توديع شاعره   وقد أودع نفسي في مشاعرهِ

وما أقبِّل طرسًا[1] جاء يغمرني   بالحب إلا وقلبي في خواطرِهِ
ولا أفارق أستاذًا تعهَّدني   كما أفارق كنزًا من جواهرِهِ
ولا أباعد أوطانًا أقدسها   إلا وروحي رهينٌ عند شاعرِهِ
تبًّا لدنيا تديم الحر مغتربًا   فيها، وأخرى تناءت عن سرائرِهِ
لام العذول، وما أقسى ملامته   ولن ألوم عذولًا في دياجرِهِ
حسبي رضاؤك عن خلقي وعن أدبي   وصدق عهدي بماضيه وحاضرِهِ
لن يعرف المرء إلا من أرومته   وليس يعرف تبر من ظواهره!

* * *

(مطران)! يا من أناديه بلا صفة   ففي اسمه كلُّ ما يُغني كخاطرِهِ
هذا نشيدي بلا وزن وقافية   وإنْ تسلسل ألحانًا لآسرِهِ
أزجيه آخر ما أُزجي[2] ويدفعني   حب كحبك، مشدوهًا كحائرِهِ
إن حال سقمك في يوم شجيت به   دون الوداع فسقمي غير ظاهرِهِ
هل عودة أم تناء لا حدود له   فغربة المرء أنأى من معابرِهِ
وغربة الفكر في دار يمجدها   أقسى على الحر من فقدان ناظرِهِ
وهل أراك بيوم مسعد نضر   مضمخ بزكي من مجامرِهِ
تحررت فيه أذهان مكبلة   وحطم الشعب فيه عجل قاهرِهِ؟
لعل بضعة أعوام سأرقبها   تحالف الحظ في تجديد زاهرِهِ
وعلني حينما ألقاك ثانية   أراك باعث شعب من مقابرِهِ!

* * *

هل يعلم البحر من أفدي ومن خلقت   حشاشتي كمثال من مآثرِهِ؟
الملهم الجيل بعد الجيل ملحمةً   من السمو تجلت عن شعائره
والواهب العمر للفنان ينزله   منازل الخلد في أسمى منابره
إن كان يعلم فليصمت على ظمئي   ولا يراود فؤادي من مزاهره

[1] كتاب خليل مطران بك إلى الشاعر، بتاريخ ٣٠ مارس سنة ١٩٤٦م.

[2] آخرة قصائد الشاعر قبل مبارحته مصر.

وليتق الحب في روحي وفي مثلي ... فما أبالي الغوالي من جزائره
رقصن في السحر الموهوب أخيلة ... والبحر يهدر تحنانًا لساحره
من خلَّد الموج آيات مجددة ... وجدَّد البحر إعجازًا لزائره
أو لا، فما هو بالإغراء يجذبني ... إلى الضلال تهادى في عساكره
ولن أبدل من عزمي وإن شقيت ... نفسي بمنفاي في أقسى مخاطره
وكيف تشقى بدنيا غير صاغرة ... لم تقبل الظلم في شتى مظاهره؟
إن طالبتني بجهد فوق محتملي ... بذلت عمري عزيزًا عن صغائره
هذا شعوري والتوديع أرقبه ... كأنَّما أنا مولود بآخره!

* * *

يا (مصر) إنْ أنس لا أنس الهوى ثملًا ... على ضفافك في شتى عناصره
رضعت فيك حناني للجمال، كما ... ركعت فيك لساميه وطاهره
لألبثن وفيًّا لا يغيره ... عادي الخطوب، أبيًّا في ضمائره
لئن أميت كفاحي في منابته ... فسوف يحيا كفاحي في مهاجره!

١٩٤٦

استقبال أمريكا

٢٨ أبريل سنة ١٩٤٦

أمانًا أيها الوطن السعيد | لقد دفن الردى ومضى الوعيد
فأمسي مأتم لفراق أهلي | ويومي الحر في نجواك عيدُ
عرفتك ملجأ الأحرار دومًا | إذا ما حورب الحرُّ الشريدُ
أقبل تربك المعبود برًّا | وألثم رايةً لك لا تبيدُ
ولو أني المخلِّف في بلادي | معالم حبُّها باقٍ أكيدُ
ولو أنَّ الرجال بها استرقُّوا | وفيك تحرر السود العبيد
تضيع مجدها الأسمى رياءً | ومجدك دائمًا حال وطيدُ
أردنا أنْ نقوِّمها فآبت | وعوقبنا، وصال المستفيدُ
وضحَّينا لعزتها فآذت | كرامتنا، وبش لها الحسودُ
وعاث بها الدخيل فبجَّلته | وفدَّاها ابنها وهو الطريدُ
يُحال العلم جهلًا في رباها | وللظلام قد زف القصيدُ
وللتهريج سلطان يرجَّى | وللطاغوت يستبق السجود
وأيسر من وداعتها اتهامٌ | يخص بشره البطل المجيدُ
إذا استشرى الفساد فكل خير | يذمُّ، وكلُّ مذموم حميدُ
لجأت إليك يا وطنًا تغنَّى | به الأحرار واعتز النشيدُ

فإنَّك منبري الحرُّ المرجَّى   وبدء نهاي، بل عمرٌ جديدُ

١٩٤٦

هكذا حدث ... رثاء نسيب عريضه

(ألقي في حفلة تأبينه بنزول تاورز في بروكلن مساء ١٥ مايو سنة ١٩٤٦م.)

ما كان عمرك موهوبًا لإنسان ... ولا لإحساس هذا العالم الفاني
ولا لأرض وأوطان حننت لها ... فالعبقرية لم تُخلق لأوطان
والشاعرية لم تُقصر منازلها ... على الحياة ولو من رسم فنان
بل كان عمرك آيات هتفت بها ... ولم تفسر بإنجيل وقرآن
ولم تكيَّف بأوصاف ننمقها ... ولم تُقدر بمقياس وميزان
ولم تُخصص، فحتَّى أنت كنت بها ... في نشوة، بين مشدوه وحيران
ملء الزمان تناجينا وتُسعدنا ... وتحمل النور ميراثًا لأزمان
وتبعث الوحي فينا وهو ينقلنا ... إلى عوالم من حسن وإحسان
تُشام بالروح أطيافًا وأخيلةً ... علوية، وجنانًا دون جنَّان
أكنَّ من صنعك الفتان أم نشأت ... عن معجزات سمت عن خلق إنسان؟
لعل في مقبل الأجيال عارفها ... إنْ فَات تعريفها روحي ووجداني!

* * *

يا شاعر الهمسات الساميات بنا ... المبدعات لنا قدسيَّ ألحان
كأنَّها صلوات لا حدود لها ... يُغني الوجود بها من قلبك الحاني
جمُّ التواضع، جمُّ العلم يسعده ... أن لا يميَّز في مدح وشكران
وليس يبخس إلا نفسه أدبًا ... كأنَّ أخلاقه أخلاق ديان

وليس يعرف غير الحب منقبةً ... ويحسب الزهو من أوزار شيطان
يحنو على الشعب في البلوى ويسعفه ... ويستثير شعور الغافل الواني
ويرفض الضيم حتى لو أتى ملك ... به، وكان رسالات لأديان
يا حامل العبء في إيقاظ أمته ... حملت عبئين بل رزءين في آن
ما بز آثارك الغراء مبتدعٌ ... ولا بنى فوق ما أعليته باني!

* * *

تركت (مصر) وقلبي ذائب حرقًا ... وجئت أطفئ لوعاتي ونيراني
وكنت جانبت أطياف الربيع بها ... وقلت حسبي بكم جنات (لبنان)
ومذ وفدت رأيت الربع مكتئبًا ... كأنَّ أحزانه من لون أحزاني
فلا الجمال قرير في مباهجه ... ولا النسيب على روض وأفنان
كأنَّ (آذار) عاداه وباعده ... وما رأت عينه أفراح (نيسان)
ما للبشاشة قد ماتت بنضرته ... وللأزاهر ما هشَّت لبستاني؟
وللجداول قد غصبت بحسرتنا ... كأنَّها لم تكن راحًا لريحان؟
وللنسيم قتيلًا بعد عاصفة ... وللسحائب في رعد وأدجان؟
وللطيور التي كانت مغردة ... تنقر العشب في يأس وإذعان؟
وللنواطح لم يشمخن في نظري ... وللروائع قد خيبن حسباني؟
شاهت جميعًا بعيني بعدما حرمت ... لقاء من عشت أهواه ويهواني!

* * *

جعلت قلبك قربانًا وتقدمةً ... للناس، والآن ما حبّي وقرباني؟
وما رثائي من آثاره عممٌ ... وكلُّ بيت له كنزٌ لديوان؟
أغنيت عن كل صيت من عوالمنا ... وعن بكاء وتمجيد وعرفان
وعشت فينا غريبًا، فلتعد ألقًا ... لموطن الأصل أو للموطن الثاني
فأنت وحدك تدري الآن ما عجزت ... عنه مواكب أذهان وأذهان
وحسبنا ذكريات منك عاطرةٌ ... وموحيات بأنغام وألوان
وخالدات من الإيمان ناصعة ... تهدي العزاء وتسمي كل إيمان

* * *

من مات موت شهيد لم يمت أبدًا　　وقد تبدل أبدان بأبدان
ومن تكن نفسه شعرًا وفلسفة　　وبسمة من أغاريد وأوزان
يأبى الإسار، وإنْ وَافَى مُجاملة　　من الشُّموس، ويأبى العالم الفاني!

١٩٤٦

ذكرى المهرجان اللبناني الكبير

(في ترنتن نيو جرزي سنة ١٩٤٦م (مهداة إلى جمعية النهضة اللبنانية).)

أبناء (فينيقيا) عشتم لأجيال	مفاخر الفن والإقدام والمال
ما عابكم أنَّكم دنيا لأنفسكم	بل عاب حسادكم عجزٌ بأغلال
تفجر الحزم منكم في مراحلكم	تفجر النبع لم يخلق لإذلال
كلاكما جائشٌ فاضت عواطفه	وسعيه فسما عن فن مثال
كأنما (الأرز) من قدسي منبته	يمتد فيكم بآثار وآجال
وتنتحي أممًا شتى بواسقه	فتغتني أممٌ من بعد إقلال
كأنَّما كل فرد بينكم بطل	والمجد لم يدخر إلا لأبطال

* * *

يا مطرب المهرجان الحر قد طربت	مسامع الدهر فارفع لحنك العالي
مضت كوارث ذاق الدهر لوعتها	إذ جنت الأرض واستخذت لجهال
فليسمع اليوم ما أعددت من نغم	يشفي الكلوم ويُحيي المنزل الخالي
لا حسن غير جمال الفن يسعفنا	بعد الدموع بأحلام وآمال
من مثل قومك في إنشاد شاعرهم	أو عزف مزمارهم أو وحي موَّال
في بسطة كانسياب النهر متئدًا	أو وثبة كجريء فوق شلال
أنشد مديدًا ولا تسأم فمنك هدًى	مثل الأذان لحجَّاج ونزَّال
ويا أماليد (قاديشا) وزينته	للرقص والشدو هذا المعرض الحالي
حيث العواطف ألوان منوعة	تجمعت في هوى (لبنانها) الغالي!

* * *

ما أجمل الحب في دنيا تآلفه | حيث الجمال بأضواء وأظلال
حيث (الطبيعة) لم تبخل بزينتها | وحيث كل جلال دونها بال
مدت موائدها الفيحاء فاخرة | وجمعت بين ظبيات وأشبال
من الفواتن من أنطقن في مرح | صخور (لبنان) ألحانًا بسلسال
من الفوارس من زانت مفارقهم | غرُّ الأكاليل، أو ركاب أهوال
من أمَّةٍ صحف التاريخ عاطرة | بذكرها، وعزيز مجدها الحالي
حار الرواة بما أسدت وما صنعت | مدى القرون، وحار الباحث التالي
ولم تزل سيرة للمجد صادحة | ومضربًا لأعاجيب وأمثال
أليس من بدع الإقدام ما مثلت | في (المهرجان) بآيات وأعمال؟
قد أرضخوا القدر العاتي لهمتهم | ولم يُبالوا بألغام وأوجال
وأطلعوا بيننا (لبنان) في وطن | ما كان للمقدم السامي بخذَّال
بينا شعوب تعاني وهي صاغرة | في الشرق موتين من ذلٍّ وإمحال
من مبلغ أمتي سر الحياة بكم | فقد أضيعت بها في القيل والقال؟!

* * *

يا وارثي من أضاءوا في مهارتهم | وفي جسارتهم نهجًا لأجيال
لعلَّ أعظم إرث في تضامنكم | وفي تعاونكم في غير إدلال
لكم تبعثر أجيال بزلزلة | ولا يفرقكم عاد بزلزال
طوبى لكم، وليكن هذا التراث غنى | فوق الغنى، لم يقوَّم بعد بالمال!

١٩٤٦

ثقتي بمآل الإنسانية: دستور لوحدة العالم

(ترجمت هذه القصيدة إلى العربية تلبية لإدارة التعليم في نيو هيفن بولاية كنيتكت للعرض في أسبوع هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧م وللحفظ في متحف إدارة التعليم هذه.)

إنّي الأمين على السنين، الحاني وأنا الوصي على مدى الإنسان
ورهين أحلام سمت بفتوحه بينا هزائمه على جسماني
تلك الندوب على الجراح شهيدة وكذاك روعة بأسه الفتان
وعجيب لغز للحياة مقدس لغز الألوهة والسنى الروحاني
عقلي تمثل في قياس نجومه ونهاي في استيعاب غير الفاني
وعلى حياتي اليوم يتبع في غد حكم الذين تتبعوا إيماني
ومقالهم صدقًا: «حملت موفقًا إرث البرية عزَّ في الأثمان»
وإذا نما الإنسان في تأميله بنهاي، أو بحجاي، أو بجناني
وازداد في معنى التفهم روحه حرًّا فسوف يعيش في الأزمان
ولسوف تغدو السرمدية للورى أقصى وأفسح من خلود دان

١٩٤٧

عيد النيروز

١١ سبتمبر سنة ١٩٤٧م

قُبَلٌ كأنفاس (الربيع) أبثها   شوقي إلى الوطن البعيد مزارا

وأراه في حضن (الخريف) بنضرة   لا تستحيل بشاشة ونضارا

وأخصه بهواي رغم نكاية   تُعلي العبيد وتُسقط الأحرارا

وكأنَّ منفاي السحيق مقربي   أبدًا إليه، وإن نأى وتوارى

وأغص بالذكرى وليس بنافعي   أن لا أغص وأن أموت مرارا

اخترت هذا العيد يوم تبتُّلٍ   وتخذت منه مثابة وشعارًا

أوليس رمزًا للحياة وموئلًا   للناس، إنْ بطش الزمان وجارا؟

عيد تلألأت (الطبيعة) بالمنى   فيه، وألبست الجمال وقارا

هبة من الأرباب كنا أهلها   و(النيل) كان يزفها أدهارا

غنت لنفحته المدائن وانتشت   أمم وأسعد حوله الأحجارا

وازينت طربًا معابد (طيبة)   وبدا (أمون) المنعم الجبارا

في عيده القدسي كنَّا أمة   لا تعرف الأحقاد والأوزارا

كنَّا نُضحِّي بالجواهر والحلي   فرحًا ونعبد ماءه المشتارا

وتشربت إكسيره أرواحنا   نعم الوجود، وأشربت أسرارا

حتى تبوأنا مكانة دولة   بزت، ودان لها الزمان جهارا

ما بالنا بتنا أصاغر عالم   نبذ الصغير، وما نزال حيارى؟

ألأننا فتنا شعائر وحدةٍ ... فتبدَّدَتْ عزماتنا استهتارا؟
ألأنَّ أصداء المعابد لم تنل ... أذنًا، فمات زمانها وانهارا!
(أنسُ الوجود) قضى شهيد وفائه ... غرقًا وكان الضاحك الثرثارا
وهياكل شتى أطاح بها الأسى ... قبل البلى، فتحولت آثارا
هبوا بني وطني لأنبل غاية ... ودعوا الصغار وجانبوا الأوغارا
وذروا الدخيل فكم يبث سمومه ... لينال من تدويخكم أوطارا
شغلت محافلكم بكل قضية ... إلا قضيتكم دجى ونهارا
وتهاون الزعماء في ميراثكم ... وتنافسوا فيما يئول[1] دمارا
هبوا وصونوا وحي ماضٍ ماجدٍ ... وكفى التطاحن وانبذوا الأغرارا
(النيل) باركَكم فرشُّوا دوركم ... في عيده بمياهه إكبارا
وتعانقوا بمنى الإخاء، وهللوا ... لجلال (مصر)، ومجدوه منارا!

١٩٤٧

[1] يئول: يدبر.

في أتلنتيك ستي

لمن يهدر البحر الحبيب وقد مضت   حياتي، ولم أستبقِ غير خيالي؟

وقد كان أيام الشباب معلِّلي   وكان نديمي لا نديم رمال

وأنفقت أيامي عليها فردها   من البشر أضعافًا بغير سؤالي

أيدعو إلى الذكرى عواطف شاعر   تلاشت على تعذيبه المتوالي؟

ولو بعثت، أنى له بشبابه؟   وأنَّى له بالحب بعد زوال؟

أهذا هدير السحر في شاطئ الهوى   فليس محالًا فيه أيُّ محال؟

تسمَّعته نشوان ألمس غابري   كما لمس المخمور وهم ليال

وما كان بالإعجاز أو سكرة المنى   فليس بسال كل من هو سال

وقد يكمن الفنان في قلب راهب   كما يكمن الإشعاع طي جبال

فألفيت نفسي في الشباب مجددًا   أعبُّ من النُّور الشهي حيالي

وأشربه ألوان أنس وبهجة   تعالت ولم تبخل برغم تعال

وهذي عروس الماء لم تدخر حلى   على الليل، حتى الليل أزهر حالِ

أعدت لدى البحر الطروب طريقنا   على جمع ألواح نَعمنَ غوالِ

(سفينة نوح) تلك أم حلم شاعر   تملك فيه الحسن كل مجالِ؟

وتغتبط الآلاف فيها حبيسة   ولا تعرف الأشواق أي ملالِ

تروح وتغدو، لا ترى الوقت عابرًا   وليس سواه بالوجود يُبالي

وما تشتهي أرضًا تلوذ بيبسها   كما اشتاق (نوح) في زمان ضلالِ

فكل الذي تعطاه صفوٌ مُبرأٌ   وكل الذي تخشاه حلو دلالِ

تدفَّق فيها النور من كل جانبٍ   إلـى أنْ تـراءى بـعـضـه كـظـلالِ
وعشَّش فيها الحبُّ حتَّى كأنَّما   تـغـذَّى وغـذَّانـا بـكـلِّ جـمـالِ!

١٩٤٧

رثاء عبد المنعم رياض بك

(ألقيت في حفلة تأبينه بنيويورك سنة ١٩٤٧م.)

صوت من الغرب ناجى روحك السامي وإن تـعـثـر فـي حـزنـي وآلامـي

جاز المحيط على الأمواج شاردة شـرود قـلـبـي وأحـلامـي وأيـامـي

أوفى جريحًا كجرحى الحرب منطلقًا مـن الـقـيـود، ولـكـن مـرهـق دام

من موطن كنت أحرى من يعز به إلــى مــواطــن إذلال وإرغــام

صينت عن الفكر والتفكير صاغرة كـمـا تُـصـان تـوابـيـت بـأخـتـام

لكم سعيت لكي أبقيك موئلنا فخاب سعيي ولم ينقذك إيلامي

وفـتَّـنـا بـخـضـمٍّ زاخـرٍ لَـجِـبٍ وعـالـم بـخـطـايـا الـنـاس دوَّام

وكنت تمزح في خوفي وفي لهفي بـخـاطـر كـرقـيـق الـزهـر بـسَّـام

أين الألى طالما أشبعتهم نعمًا وما استحقوا، وما كانوا لإنعام؟

رفعت أرؤسهم في غير منزلة شأن الكريم، فما اعتزوا بإكرام

أين الوفاء، وما أرجوه في زمني من معشر بين خفض النفس والهَامِ؟

كم حاصروك لأهواء ومنفعة واليوم شقَّ عليهم بعض إلمام

إن تُنس لم تُنس في قلب يذوب أسى وإن تبلور في شعري وأنغامي

يشكو من الغيث من يشكو وفي حرقي لا يشتكي في وفاء قلبي الظامي

أَنَّ الربيع أنيني في عواصفه وصاح بين تباريحي وأسقامي

وشاب أهواءه ما شاب خاطرتي من الكلال ولم يعمر بأيام

كأنَّما كل شيء حال في نظري إلا مـثـالـك فـي نـبـل وإقـدام

إلا نزاهتك القصوى لدى زمن فيه النزيه غريم بين أخصام
إلا وداعتك المثلى يدين لها من لا يدين لبرهان وأحكام
إلا وفاؤك للعانين تسعفهم وكلهم من رعايا قلبك السامي
تولي الجميل وما تدريه مغتبطًا وشاكرًا شكر مخدوم وخدام!

* * *

هل يعلم (النيل) أيُّ النَّاس غيَّبه ذاك الأديم، وإن يقرن بأعلام؟
وأيُّ علم وأخلاق وتجربة قد ضيعت حين إعياء وإعدام؟
وأي فضل وإيثار وتضحية كنَّ الفداء لأقوام وأقوام؟
قسط النبوغ يجود النابغون به وقد يجاد بأرواح لأنعام
عاشوا اغترابًا بدنياهم وما سلموا وجاوزوها على نار وألغام
وكل فرد شقيٍّ بينهم بطل وقد يمجد بالتجريح والذام
أو لا، فبالترك يضنيهم ويقهرهم قهر الجفاف لجناتٍ وآجام
ماذا انتفاعك بالذكرى، وما انتفعت بك الحياة سوى في بعض أحلام؟!

* * *

من مُرجعي لزمان كنت بهجته وكان مرآك إسعادي وإلهامي؟
جم السماحة، لا ينجاب عارفه كأنَّما هو موكول بأيتام
المدرهُ الفذُّ لا تدمى مطاعنه ولا تُعاب بإسفاف وإيلام
والفاتح العضب لا تنسى معاركه كأنَّها غزوات بين أجرام
يصغي إليه الذي يعنو لحجته كالصلد يعنو لغمر الجحفل الطامي
لم ينس أمرًا إذا ما صال مقتحمًا إلا عواقب إجهاد وإقحام
إلا مكانته العظمى، فما هبطت جهوده لمباهاة وإعظام
كان المثال المرجى في رجاحته فأين أين المرجى بين أصنام؟!

* * *

(مدينة النور) لم تُطفأ عليه أسى ولم ينكَّس بها مفجوع أعلام
وما تذبذب تيار الحياة بها ولا بكته، وما بالت بأوهامي
ولا المحافل أحياها وأبهجها ريعت، ولا شاه غرس حولها نام

في كل مرأى جمال كنت أعبده ولم يزل وحي صدّاح ورسّام
لئن صدفت بحزني عن مفاتنها فما تبالي بلوعاتي وإحجامي
كأنّما لم تزل فيها بشاشته وعذب أقواله في رجع أنغام

١٩٤٧

قطرات الندى

من وحي الخريف

وافى الخريف فوافت للندى صور … من الجمال على عشب وأوراق
كأنَّما أودع العشاق أنفسهم … بها، فما كشفت يومًا لأحداق
تلألأ الحب فيها وهي باسمة … تبسم السحر في ألحاظ عشاق
ما للعناكب قد فازت بحليتها … وللحشائش قد رفت بأشواقي
ولم أزل في ظمائي غير مدَّكر … وما يُبالي الندى همي وإخفاقي؟!
إن داعبتها خيوط الشمس راقصة … ذابت نضارًا حيال اللؤلؤ الباقي
ولم يعد من مرائيها سوى حلم … كأنَّما غيرتها فتنة الراقي!

* * *

غاب الندى ونسيم الصبح يُعلنه … سرًّا أبيح لوجد الشاعر الشاكي
تدري العناكب ما يروي كما فهمت … كلٌّ (الطبيعة) هذا الصامت الحاكي
فإن بكت بدموع للندى ذرفت … فقبلها ذرفت في خاطري الباكي
كم للنسيم رسالات منوعة … يشجى الوجود لها أضعاف إدراكي
كأنَّما هي ألغازٌ ووسوسة … على حروب، وحينًا همس نسَّاك
تعنو الغصون صلاة في تجاوبها … وفي تبتلها تودي بإشراكي
فما أرى غير دنيا الحب ماثلة … فيما أرى بين أنداء وأفلاك

١٩٤٧

بماذا سيموت؟

(إنَّ الطبيب يبذل غاية جهده، فلماذا نرتقب أكثر من هذا؟ (الاتشنج أو الرسم الحفري المعدني للفنان الإسباني جويا)).

وطني الحبيب وقيت شر الداء ... وأغثت من أهليك في الجهلاء
الموت أبعد عنك حين وباء ... من رحمة الجهلاء والبلهاء
ماذا جنيت ليحكم القدر الذي ... أفتى بما أفتى من الأرزاء؟
أيرد عنك الألمعي وطبه ... وتموت بين سوائم ووباء؟
أحنو عليك وإن نفيت، ولم أزل ... صنوًا، وقد بتنا من الشهداء
ضاقت بنا الدنيا العريضة واغتدت ... أحلامها أحلام كل مرائي
وقد انتهيت إلى فراشك ساكنًا ... للنزع حين أبوا عليَّ فدائي
هل نافعي كل الذي أغنى به ... حولي وكل مشاعر الأحياء
وأنا أراك تئن في أسر الردى ... وتثير لوعة مهجتي ووفائي؟
وأنا الغريب موطَّنًا ومغرَّبًا ... ومحرمًا أن تستجيب ندائي؟
سأعيش في بعدي رهينك دائمًا ... أرعاك بين تحسري ورجائي
وأهيب بالأبناء رغم عزوفهم ... وخنوعهم وعقوقهم وبلائي
فلعله يومًا يثير شجونهم ... قبل الفوات، فلا يردُّ دعائي
فتعود للأحياء غير مكبل ... وتصيخ للحكماء والعلماء
أقسى من الموت المدمر حالة ... تدعو الرثاء لنا من الأعداء

من السماء

والعصر عصر العلم، من لم يستبق لحماه ضاع ومات دون رثاء!

١٩٤٧



بماذا سيموت؟

الاحتمال

تـجـرعـت آلام الـبـريـة مـثـلـمـا ... تجرعت في قلبي المآسي حوَّما
علام اعتناقي للتفاؤل حينما ... فؤادي ووجداني به قد تهدَّما؟
وفـيـم وَلـوعـي بـالـوداد أصـونـه ... وقد ضجرت نفسي بأسهمه دما؟
وإن لم تضرَّج بالصغائر مرة ... وإن لم تُدنس بالتزلف للدُّمى[1]
وما استمرأت نفسي الخصومة مرة ... فلم تتخذها للمنافع سُلَّمًا
ولكنها تلقى العذاب مخلصًا ... وتؤثره حظًّا وتبغيه مَعلما
وتشقى وما ترضى التقهقر موئلا ... وترقى وما تسترحم الأرض والسما
ترى ألم الأحرار سر وجودهم ... ومن ذلك الحرُّ الذي ما تألما؟
طغى كل يوم مأتم بعد مأتم ... ونفسي تأبى أن ترى الكون مأتما
وما ندمت يومًا على ما أصابها ... من الحيف مهما ذوقت منه علقما
إذا عرف الأحرار حمل بلائهم ... فما عرف الأحرار بعد التندما
ومهما شكوا كانت شكاة قلوبهم ... وفاء لمعنى، أو رجاء تلثَّما
وقد آمنوا بالحق ينصر آخرًا ... وإن دوخ الظلم البرية واحتمى
وما زلت تغزوني المآسي كأننا ... صحاب، وتهواني شرابًا ومطعما
بلا كلفة تحيا على برٍّ مهجتي ... فآثرت أن أفنى وأن أتبسما

١٩٤٧

[1] الدمى: الأصنام.

فنِّي وحياتي

أمَّتي! ما زلت فنِّي وحياتي فاصفحي، أو فاغمري باللعنات!

لم أقرِّع، يائسًا أو كارهًا[١] بل محبًّا ريع من عاتٍ وعات

مشفقًا إذ جُرِّع الناس الأذى غصصًا عدَّت أجل الحسنات!

قد أباح (الفن) أمسًا مرهقًا وأباح (الملك) إرهاق البناة[٢]

حينما (اليوم) كئيب عاثر تحت أقدام المذلين الطغاة

ليس هذا الظلم إلا غمرة للسُّداة[٣] المستهينين الجناة

ما حوى فيما حوى تبرئةً أو خيالًا لمعاذير الحماة[٤]

بل حوى العسف على ألوانه ساخرًا سخر المجانين الدهاة

أمتي! ما كان شعر صغته في حياتي غير لمح من حياتي

ما عناني منه قلبي مرة أو ولوع الناس أو مدح الشداة

مثل آلاف قلوب أحرقت في عذاب بين أفراح القضاة

كل حسن شاقني في غربتي منك، إذا ألهمت منك صلواتي

كل آياتي التي أبدعتها هي بعض من سنا (مصر) الفتاة

---

[١] منصوب على الحالية؛ أي لم أعنف وأنا يائس أو كاره بل وأنا محب ذعر من ظلم الطغاة.

[٢] إشارة إلى تقاليد مصر القديمة.

[٣] السداة: جمع وضعي للسادي — أي الملتذ بالتعذيب لمجرد التعذيب.

[٤] المدافعون عن جبروت القرون السالفة.

أو دعـائـي شـامـلًا فـي حـبـه عالـم الناس المسـاكين الـعـفـاة
لا أبـالـي الـنـفـي أن يـسـر لـي بعض تبديد لـهذي الظـلـمات
وشـقـائـي، لـو غـدا تـضـحـيـة ما شقائي من عديد التضحيات؟
ولـيـهـنـأ مـن عـداتـي كـل مـن خـانني، ولينعموا يوم مماتي!

١٩٤٧

قلب والد

(أهديت إلى ابنتي صفية.)

لا أرى للـحـيـاة كنـهًا ومـعـنـى　　أن تخلت عن الهوى أو تجنَّى
وسعيد من عاش يعتنق الحب　　ومـن حـاز مـلـكـه مـطـمـئـنـا
وأراني السعيد مهما تناهت　　نـوب لـلـزمـان غـدرًا ومـيـنـا
أعرف الحب كيف عشت ملاذي　　وسلامي، وأملك الحب كونا
وتناهيت يا (صفية) في البر　　بـقـلـبـي فـلـم يـعـد بـالـمُعَنَّى
أي ذكـرى أخـطـهـا لـك إلا　　دعـوات بـهـا فـؤادي تـغـنَّـى
منذ ما كنت طفلة وأنا أشـ　　ـدوا بما أرتجي وترجين منا
إنَّ قـلـب الأب الـمـحـب لدنيا　　لم تكيَّف ولم تحدد بمعنى!

١٩٤٧

القلب الباكي

(وحي باقة من الورد في عيد ميلاد الشاعر.)

هل يعلم الناس نجوى قلبي الباكي وما أعاني بأشواقي وأشواكي؟
ما نعمة الورد للمحزون آلمه عطر من الورد حاكى روحه الشاكي؟
إذا تبسم لم يظهر ببسمته إلا أساي، وإن يجهش فإدراكي
يلقى الشتاء لقائي، لا يدفِّئه ما هيأ الناس، منهوكًا كإنهاكي
كأنَّ باقته تُهدي إلى أملي عواطف الحب عانت غدر سفاك
كأنَّما عيد ميلادي يعانقها على وداع بقايا حبي الذاكي
هنَّ اغتربن الضحايا لا ذنوب لها كما اغتربت، فماتت موت نُسَّاك

* * *

يا (مصر) لولاك ما فارقت في حرقي أزكى الجنان، ولا عوقبت لولاك
أهواك في غربتي أضعاف ما سمحت به المقادير في قربي لأهواك
أبت عليَّ كفاحي عندما أذنت للغادرين، فعاثوا في حناياك
ما العيد عندي عيد في مباهجه أنا الغريب، فعيدي يوم ألقاك
على سلام وفي حرية شملت لا أن أعود لأغلال وأشراك
الثلج حولي أحنى في تحرره على فؤادي من ضيم بدنياك
والنفي أسعد أيامي إذا فرضوا ذل الجباه لمأفون وأفاك
يا رب مقترب في حكم مغترب وضاحك كلُّ ما في قلبه باك

١٩٤٨

ربيع الحر

ربيعَ الحرِّ أشرقْ يا ربيعي وثبْ فرحًا مع الحمل الوديعِ
ولا تحجب حياء كالعذارى سناءك أو صلاتك عن سميعِ
لقد نم الأريج عليك لمَّا أريق شفاعة الحب الصريعِ
ونمَّ عليك همس من غصون ووسوسة البراعم في خشوع
وسقسقة الغرام تذوب لحنًا بأمواج الضياء على الزروع
وآمال السلام وقد تراءت نجومًا في السماء وفي الربوع
وتحنان الجماد لكل حيٍّ يرفُّ بلهفة الطفل الرضيعِ
وأنداء الصباح مضمَّخات بعطر الحسن في نسق بديعِ
وآلاف الروائع سافرات وإن خفيت عن الحس الوضيعِ
يفيض الجوُّ سحرًا عبقريًّا تفرَّد بالأصالة والنزوعِ
كأنَّ جميع آلهة المعاني حبته كنوزهنَّ على الشيوعِ
كأنَّ الكون يخفق في حبور خفوق الشعر في الروح الرفيع
تقدّس كلُّ شيء في عيوني وقد ران الجمال على الجميع
فكيف إذا سفرت لنا فتيًّا بثوب العرس تخطر في الجموع؟
وكيف إذا الأناشيد الغوالي أغثن الروح من ظمأ وجوعِ
ولقَّن العبادة كل قلبٍ وأطلعن الشموس من الشموع؟

* * *

ربيع الحرِّ أشرق يا ربيعي وثب فرحًا مع الحمل الوديع

كلانا كان في عنت وضيقٍ   يُعاني الأسر في سجن منيعِ
وكنتَ معذبًا شاهت نُهاهُ   وكنتُ ضحية القدر الفظيع
فعدنا اليوم يجمعنا إخاءٌ   وأرض لم تسخَّر للرقيع!

١٩٤٨

تحية وفاء

في عيد (الهدى) الخمسيني

«الشتاء! الشتاء» صاح بي الجارُ كأنّي في حاجة للنِّداء!
وتنير النجوم حولي وقد بزَّ خيالي وهزَّ شتى المرائي
والضياء الأصيلُ ران على الدنيا سناءً مجسَّدًا لا يرائي
فاتحًا كلَّ معقلٍ حجبته عن عيون الورى بروجُ السماء
لاهيًا ساخرًا، وقد خضخض الدنيا فزالت معالم الأشياء
وغزا الوقت فامَّحى كلُّ حدٍّ لنهارٍ معرَّفٍ أو مساء
وإذا بي مشردًا وكأني ما شهدتُ العمران يومًا إزائي
وأخوض الثلوج شبه غريقٍ كبَّلته فوادحُ الأعباء
شاكرًا حظِّي العظيم، وقد شلَّت جموعٌ، وشلَّ نفس الهواء
ذاكرًا في حرارة الود عيدًا يمَّحى عنده صقيع الشتاء
شغل القلب ذكره فتناسى ما عداه، مستغرقًا في الغناء
أيُّ عيدٍ هذا سوى عيد إقدامٍ وفكرٍ وهمة واعتلاء؟
هو عيد (الهدى) الأغرُّ الموافي بمعاني الوفاء للأوفياء
ليس بدعًا وقد نعمت بها وقتًا حنيني الملحُّ أو خيلائي
هرعوا يحفلون بالعيد أفواجًا وزفوا له تحايا الولاء
وتباروا في كل رمزٍ جميلٍ لم يدنس من ريبة أو رياء

شرفٌ للجميع ما هيَّأ (اليوبيل) من عزةٍ لهم أو رجاء
ليس عمرُ الخمسين عمرًا لأجيال، ولكن لنهضة زهراء
لم تزل في شبابها مبعث الوحي منيعًا على البلى والفناء
عززت حرمة اليراعة والرأي ومجد الصحافة الشمَّاء
وتسامت منارةً لا تسامي، فقليل لها جزيل الوفاء

١٩٤٨

الألوهة والكون

كلُّ شيء في الكون سحر عجيب ... والغريبُ القصي فيه قريب
يجهد العلم باحثًا بينما وُفْـ ... ـفِق من قبلُ واحتواه الأديب
هكذا كلُّ ذرةٍ من كياني ... تحتوي العالم العظيم السَّاني
أنا فانٍ وفي المدي غيرُ فانٍ ... وكياني هذا الوجود الرحيب
والإله العظيم هذا الضياءُ ... ومعانيه أجملتها السماء
لا ابتداء له وليس انتهاء ... أو شروقٌ لوحيه أو غروب
كلُّ شيء من حولنا يتحولْ ... ولو أنَّ الخلود طبعٌ مؤصَّلْ
سوف نحيا على ضروبٍ تشكَّل ... بينما الأصل واحدٌ والضروب
لَبِنَات الوجود موج يدور ... قد تجلَّى به الإله القديرُ
والجمال الذي به نستنيرُ ... غاية للوجود لا تستريبُ
هو فن ثوى به الفنان ... هو كونٌ أرواحه الأبدانُ
هو معنى ما فاته الإمعان ... وتناهى إليه شعرٌ حبيبُ
ما ابتهالي إلا ابتهال لنفسي ... فأنا ملهمٌ جناني وحسي
وحناني إلى الإله وقبسي ... من سناه استجابة لا تخيب

١٩٤٨

حسني الزعيم

(بردى) أيلقى النطع خير بنيكا ... ويموت من أحيا العظائم فيكا؟!

لهفي على شعب يُباع ويشترى ... والبائعون المشترون بنوكا!

تشجى العصور من المآسي حولهم ... وتعاف عدَّ طغاتها أهليكا

ماذا دهى الشعب العزيز وقد غدا ... صيدًا لكل مغامر مملوكًا؟

يأبى النهوض كأنما أجداده ... حفروا الخنادق معقلًا مهتوكًا

وتجنبوا رفع الصروح، وآثروا ... ذلًّا، فصاروا الخامل الصعلوكا!

ماذا دهاه وكان موئل عزَّةٍ ... لرجائنا، فأطاحه منهوكا؟

من شجَّع الإجرام غير رضائه ... بالضيم يتبع سوقةً وملوكا؟

ساموه خسفًا لا يحدُّ، ودعَّموا ... فوضى ذرته الواهن المفلوكا

يا شعب! إن رمت المذلة فاغتبط ... أو لا، فأين قصاص من نهبوكا؟

ليس العدوُّ ألدَّ ممن عفَّروا ... تلك الجباه تحكُّمًا ورثوكا!

* * *

(حسني الزعيم)! كتبت ذكرك خالدًا ... في المصلحين له، دمًا مسفوكا

يا من ترفَّع عن صغار خصومه ... تعب الخصيم وما أثار شكوكا

إنْ عد مثلك خائنًا لبلاده ... نعم الخيانة للعظيم سلوكا

يا حافظ الحرمات، هذي غايةٌ ... للمتقين نكايةً وحلوكا

شتان بين هوان ما أورثته ... وجلالك المزري بمن ورثوكا

النَّاس هم تلك الذئاب وخيرهم ... صلبوا (المسيح) ومجدوا المأفوكا

وقضوا على البطل الهمام بإفكهم مذ عدَّ للبطل الهمام شريكا!
إنْ يهنأ اليوم الذئاب، ففي غدٍ سيروعون من العقاب وشيكا!

* * *

مهلًا زعيم المصلحين فربما ناب الممات فراح يستهديك
ليرى الأواخر ما صنعت ويهتدوا وليتمموا بوفاء من يفديكا
ماذا يريد الغادرون — وما دروا إلا الخيانة — بالنداء ركيكا؟
أنقذتهم، فإذا بهم في دأبهم مثل العقارب تبغض التحريكا!
وسبقت عصرك والنبوغ جناية وأبيت شعبك تائهًا منهوكًا
أوسعت صدرك للعداة وهكذا أوسعت صدرك للرصاص ضحوكًا
فارقد! لعلَّ ثَرى بلادٍ صنتها تحنو عليك حنوَّ من عرفوكا!

١٩٤٩

غضبة الأحرار

إلى الصديق سلوم مكرزل صاحب (الهدى) في عيد ميلاده:

إذن لم يعد في القوس للصبر منزعُ ... ولم يبقَ غير الثأر للنَّاس مفزعُ
لخير لهم أن يشبهوا الريح ثورة ... عن الريح تستبكي كما تتوجعُ
لخير لهم أن يلثموا النطع والردى ... عن الذل حين الحر للبغي يركع
حيينا إلى عهد به الجبن دولةٌ ... وفيه الأبي الشهم عانٍ مضيَّع
وأصبح فيه اللص ينهب جهرة ... وأصبح رب الحق يرجو ويضرعُ
ولم يسعف الظلاَّم من جبروتهم ... بأكثر ممن للأذاة تطوعوا
فواعجبًا تسعى الضحايا لحتفها ... وبالشرف المحيي لها ليس تقنعُ
ووا أسفًا للجهل يغلب أمةً ... فلا الجيش يجديها ولا المال ينفع
ووا ضيعة الآمال في عهد شيعة ... تجافت وجافتها المكارم أجمعُ
كأنَّ لها حظًّا بتدويخ شعبها ... فمن يدها يسقى الردى ويجرَّعُ
وفي كل يوم نكبة بعد نكبة ... تزعزعها، لو أنَّها لا تزعزع
فما هذه الأقدار تسحق أمة ... وتترك جلاَّدًا لها يتمتعُ؟!
إذا الأمم استخذت ودانت لغيرها ... فلا الوهم يغنيها ولا الزهو يرفع
تفوِّت غنمًا بعد غنم، ويدعي ... مضللها أضعاف ما يتصنع!

* * *

هنيئًا أبا الأحرار بالقدح نلته ... وسامًا، وقد هان الوسام المرصعُ

ستذكرك الأجيال خادم مبدأ   ودينٍ له الأجيال تعنو وتخشعُ!

١٩٤٩

الشاعر السامي

رثاء خليل مطران

إلهة الشعر! عاد الشاعر السامي ... إلى عوالم لم تحصر بأجرام
إلى عوالم غناها وأسكرها ... كأنَّ أضواءها أصداء أنغام
إلى نُهًى لم تُكيَّف في منازلها ... ولم تحدد بأنفاس وأجسام
إلى منابع للإلهام صافية ... فاضت على الشمس والدنيا بأقسام
الأنبياء إلى عليائها انتسبوا ... والشاعرية في وحي وإلهام
إلى منارك، فاستعلت كواكبه ... ونحن في وهدة هانت وإظلام
تدور لا مُلجمٌ يملي مساربها ... ونحن ما بين إسراج وإلجام
وتبعث الشعر في خفق أشعتها ... جمَّ الفصاحة إنْ يوصف بإبهام!

* * *

إلهةَ الشعر! عاد الشاعر السامي ... إلى عوالم لم تحصر بأجرام
لم ينزع الموت إكليلًا خصصت به ... ذاك الجبين، ولم يظفر بإغنام
وإن يكن قد أثار الهول في مهج ... وبعثر الزهر من باك ومن دام
أسري به في بروج لا كواكبنا ... تدري مداها، ولا أرباب أحلام
وخلَّف الفن مكبوتًا على وجل ... ألم يرزَّأ بفقد الكوكب (الرامي)؟
طار النعي وبئس الطير روَّعنا ... وهو الجريح بأحزاني وآلامي

ألقى علينا الأسى ثكلًا ومسغبة
مـبـددًا ذخـر آمـالـي وأحـلامـي
زاد الهجير لهيبًا فرط حرقتنا
ألـيـس حـرقـتـنـا أنـفـاس أيـتـام؟
كـأنَّـمـا لـم يـمـت قـبـلًا بـعـلَّـتـه
الـفـاتـحـون لـدولاتٍ وأفـهـام
كـأنَّـمـا عـيـشـه حـام لـفـكـرتـهـم
والفكر ليس له كالفكر من حام
ما أفدح الخطب للعانين ما نعموا
فـكـلُّ جـرح جـديـد غـيـر مـلـتـام
وما أشق المآسي للشعوب متى
تـدوولـت بـيـن إحـيـاء وإعـدام!

* * *

هل يعلم النَّاس أيُّ الناس قد فقدوا
أم لا يـزالـون فـي نـومٍ وأوهـام؟
وهل بكت (بردى) و(النيل) واضطربا
كـالأرز مـن نـوح أعـلامٍ وأعـلام؟
أصـالـةٌ مـن جـلال لـيـس يـرفـعـه
عالٍ من المدح أو دان من الهام
من ساير النهضة الكبرى وهذَّبها
بـالـفـن والـرأي أعـوامًـا بـأعـوام
ومـا تـردد فـي تـكـيـيـف مـبـدئـه
ولا تـذبـذب فـي نـقـض وإبـرام
ولا تـلـعـثـم يـومًـا فـي رسـالـتـه
ولا تـعـثَّـر فـي تـحـطـيـم أصـنـام
كأنَّما رشده الصمصام في فرقٍ
وشـعـره بـرء فـأفـاءٍ وتـمـتـام
أجزت شجاعته الأحرار عن خدع
فـي عـالـم زاخـر بـالـلـؤم لـوام
وفاض شؤبوبه ريًّا لمن عشقوا
أنـفـاس (طـيـبـة) أو ألـحـاظ آرام
وأشـرفـت بـعـلـبـك مـن خـرائـبـهـا
عرائس المجد في (لبنان) و(الشام)
ألبستها حللًا ما نال مشرقها
أعراس (كسرى) ولا أفراح (بهرام)
ما (البحتري) من (الإيوان) موقفه
وأنت في (بعلبك) العابد السامي؟
مـنـازل لـك لـم يـنـزل بـسـاحـتـهـا
إلا الـنـبـوغ، فـمـا هـانـت لأقـوام
شـعـر تـشـرَّبـه الأرواح صـافـيـةً
وتـسـتـقـلُّ بـه، لا نـظـم نـظـام
وشـاعـر لـم يـمـهـد قـبـلـه بـهـدى
مثل (المسيح) أتى من بعد إظلام
جم المروءة، وافي الخلق، ذمته
لـيـسـت مـطـيـة أحـبـاب وأخـصـام
يغدو إليه ذوو الحاجات في لهف
ويـنـثـنـون وكـلٌّ جـدُّ مـبـسـام
ومـا تـعـاظـم يـومًـا فـي تـفـوقـه
بـل فـي تـواضـعـه آيات إعـظـام
كـانـت زعـامـتـه ركـنًـا يـلاذ بـه
دون ادعـاء لأحـزاب وإحـزام
كالنور ليس لأرض أن تخص به
ولـن يُـقـاس بـأبـعـاد وأرقـام!

قد ضنَّ بالفن إلا للبصير به كالكنز خبئ في حرز بأختام
وصان تفكيره عن عرض مبتذل كأنَّما هو حصن بين آطام
والفكر كالدين حي في قداسته ملء العصور بآيات وآرام[1]
لا كالخرائب والأطلال يسكنها شبح الفناء وتستخذي لأبوام
ما عززت أمةٌ أودت بعزته ولا اغتدت دونه في عدِّ آنام
إذا تهاون شعبٌ في كرامته عزَّ الأديم عليه عند أدَّام
وإن أسيء إلى الآسي يُعالجه لم يرأم الجرح أو ينقذ بإرآم[2]
ما حاربت أمةٌ أخيارها ونجت أو أودعت أمرها أوهام رجَّام
هذا هو الخالد الموهوب أرفعه عن أن تشير إليه أي إبهام!

* * *

قنعت بالحظ في النجوى ومرتقبي نعمى حنانك في عودي وإكرامي
يا من أصاخ له قلبي فهذبني طفلًا وكهلًا، وأحيا كل أيامي
يا من سكنت إليه العمر ملتجأ ضافي العزاء، فلم أعبأ بأخصامي
صحبته في خيالاتي، وفي مثلي وفي حياتي، وفي سعيي وإقدامي
ولم يزل، ... ما لهذا الموت يعصف بي كما يبعثر تأويلي وأحكامي؟
وما لبرهة عام كنت أرقبها حالت أبودًا وردتني لإحرامي؟
أولى به ساعة تنكيس أرؤسنا حزنًا عليه وتنكيس لأعلام
لا أن تخفَّض للطاغوت صاغرة أو أن تطأطئ في بؤس وإعدام
لئن تجرد عن ألقاب مملكة زانت جبانًا وما كانت لمقدام
فالذئب يمرح في ثوب لسيده وما يبدل غنمًا ثوب ضرغام!

* * *

لم يبقَ لي من عزاء غير ما وهبت يمناك للخلد من آيات رسَّام
ومن مزامير جلَّت في ترسُّلها وفي تسلسلها عن أي إدغام

[1] الآرام: النصُب التي يُستهدى بها.

[2] الإرآم: معالجة الجرح.

ومن تسابيح مطران أردِّدها كأنَّما هي من أركان إسلامي
ومن أغاريد للعشاق أرشفها راح الشباب فأنسى جدب أيامي
ما الراح في الخلد موعودًا بها أدبي أرضى بجاماتها عن هذه الجام
ومن أهازيج في معنى وفي صور هي (الطبيعة) في روحي وإلمامي
ومن عظات وأمثال وفلسفة جاءت أناجيل فوق المدح والذام
ومن تهاويل للتاريخ تسردها فنلمح الدهر أحقابًا بأيام
ومن صنائع للمعروف سابغة ساوت ببر لمخدوم وخدام
ومن أحاديث مج الشد مبدعها وإن توارت بأزهار وأكمام
تنم عن عبقري الفن معجزةً والفنُّ كالحب يحيا جدَّ نمام
ولا أنيس سوى الذكرى لصحبتنا وكم تثور على يأسي وإحجامي!

* * *

رحلت في زمن عزَّ الحكيم به والسائس الحرُّ، بله الشاعر السامي
عن أمة حظها الشكوى بلا خطر فما تثور على أسواط ظلَّام
يخشى أفاضلها الأوغادَ إن سعلوا ويركعون لأغرار وأوغام
ويسخطون على مثلي ليقظته إذ يمدحون ويبكي الشانئ الرامي!
لا يستقرون من روع ومن قلق ولا يلبون حتى عزم همَّام
إذا أردنا لها استقلالها نفرت وما كرامة ذي عوز لقوام؟
كأنَّما نسيت تاريخ عزتها ولم تطوف بأهرام وأهرام!
قالوا: قطيع من الأغنام يشبهها! يا ليتها كقطيع بين أغنام!
يصطاد أرزاقها من لا أكيفهم وتُستباح ركوبًا عند إجرام
ولا يقومها نصح ولا عبرٌ ولا سدادٌ، وتهوى لهو هدام
كم خودعت وصروف الدهر ضاحكة فخلَّطت بين أحباب وأخصام
ما بارم الحبل في أعواد مشنقة كرافع لبنود النصر برام
فأثخنتها جراحات بلا عدد وأسلمتها لزلات وأسقام
وما ينال وفيٌّ حين يرشدها إلا العقاب وإلا وطء أقدام
الهزل ما زال من أسمى شعائرها والجهل معبودها في ملكه النامي
أحرارها غرباء لا تميزهم في حين تعنو لأوشاب وأعجام

لم تتعظ وصروف الدهر تلطمها ... ولم تزل رهن أنصاب وأزلام
وتقتل الوقت إسفافًا ومنقصة ... وثأرها عند بطريق وحاخام
ولم أزل وأنا العاني بخدمتها ... شبيهها في ضلالاتي وإيهامي
أحنو عليها وإن حارت على أدبي ... وعاقبتني على برِّي وإنعامي
وطاردتني إلى منفاي جانيةً ... وعددت صفو آثاري كآثام!

* * *

من لي بقربك حيًّا ذائدًا مقةً ... عني، وحارس وجدان وأقلام
يؤرخ الأدب العالي بسيرته ... وباسمه يهتف الوافي بأقسام؟
ليبك من صفوة الأحرار من عرفوا ... من أنت واغترفوا من بحرك الطامي
ومن أبوا أن يُعَدُّوا في محبتهم ... بين المغالين، لو قيسوا بمستام
ومن يفدون أوطانًا نفخت بها ... روح الإباء فلم تذعن لهوَّام
إنْ كانت اليوم نهبًا بعد تضحية ... فلن تسام دوامًا سوم أنعام!

* * *

عسى الرياض التي ناجيتها شغفًا ... تبوح بالوحي للسامي وللظامي
عسى الرياح التي شاقتك ثائرةً ... تفك عني أغلالي وأرغامي
عسى الهدير على الأمواج ينفحنا ... بلحنك الحر لم يقرن بإعجام
عسى ترانيم هذا الطل تمنحنا ... فرائدًا منك في شؤبوبه الهامي
عسى المساء الذي غنيته صورًا ... من الجمال يغذِّي حلو أنغامي
عسى الجداول في أبهى وداعتها ... تسيل منك حنانًا حول آكام
عسى المروج وراعي النحل يلثمها ... ترفُّ بالشهد عطفًا بعد إجهام
عسى (الطبيعة) في أسنى مفاتنها ... تجود لي بسناء منك بسَّام
إني تأملت في حسن أهيم به ... رأيت لطفك في ذهني وتهيامي
في نشقة العطر أو في النور مختلجًا ... في ثورة البحر، أو في روع آجام
وفي مشاهد لا تحصى دقائقها ... أنَّت وغنَّت على مزمار غنام
ورنحت كل عشب في تصوفه ... كأننا أهل أشواق وأرحام
أزجي رثائي صلاة أنت ملهمها ... وإن تكن من حنايا قلبي الدامي!

١٩٤٩

الطلع والزهر

إلى الصديق الشاعر نعمه الحاج في مرضه بحمَّى الطلع:

أيشكو من الطلع أندى الزهر ... ومن قهر اليأس فيمن قهر؟
سلمت لنا يا رسول الجمال ... (يسوع) الهوى والهدى المنتظرْ
تؤانسك المهج الشاكرات ... لك الأنس في شعرك المدخر
وترعاك أطياف هذا الخريف ... وقد رقصت فوق عزف المطرْ
ترتل عنك نشيد السلام ... فتمضي الرياح ويصغي الزهرْ
وتهتف بالحب روح الوجود ... فيهفو لها كلُّ شيء شعر[1]
وتورق عند حفيف الغصون ... أمان، ويبسم حتى الحجر
سلمت وعوفيت من كل ضر ... وحالفك المستعز القدر
وعشت تمجد في الخالدين ... وخلقك دنيا تفوق البشر
ولا زلت منهض شعب أسير ... يناجي السماء ويرضى الحفر
تملقه دائمًا قاهروه ... وقد أورثوه صنوف الغير
فأوهم في ذله عزَّةً ... وهوَّن ما حوله من شرر
أغثه وقم يا طريح الفراش ... قيام النبي أمام الخطر
وجلجل بصوتك في الخافقين ... ليؤمن بالحق من قد كفر

[1] شعر: قال الشعر.

وكن كأخيك الشقي الصبور   على بره يستطيب الضررْ
يجود بأنفاسه الوافيات   لأوطانه فيلاقي البطر
ويرجمه الطغمة الهازلون   وقد خادعوا الشعب حتى انفطر[2]
إذا ما تنحَّى الهداة الأساة   وخافوا مثالب غرٍّ فجرْ
فيا ويل أمتهم في الهوان   ويا ويلهم من زمانٍ أمرّ
سأرقب كتبك، شأن الحبيب   يناجي النجوم ويرعى القمر
وفي كل سطر أرى للحياة   معاني تلهمني أو سيرْ
فعجل ببرئك يا ابن السماء   فكم معجز لك قبلًا ظهرْ
حرامٌ سقامك يا من تقدَّس   عند الفنون بأسنى السُّور
حرامٌ فعد لنشيد الخلود   وأسمع (أبولُّلو) فتونَ الوتر!

١٩٤٩

[2] انفطر: انصدع.

جواب الصديق الشاعر نعمه الحاج

وقيت الضنى وأمنت الخطر وأبعد عنك الإله الضرر

وكل هزار شدا في السطور فدًا لك أو إن شدا في الشجر

أبا الشاديات الزكي الفؤاد تفردَّت باللطف بين البشر

أتيت تؤانسني في الضنى وتبعد عني الأسى والضجر

بنفثة سحر من المعجزات هزْزَت فؤادي هزَّ الوتر

ومعجز أحمد فيما مضى ومعجز أحمد فيما حضر

شعورك ألهب فيَّ الشعور بشعرك يا خير من قد شعر

وروحك جادت على مهجتي بما جاد للظامئين المطر

برئت وزايل عزمي الخور ولم يبقَ للطلع بي من أثر

وما من علاج ولكنَّه دعاء الصديق الوفي الأبر

أخي وكتابك فيه الرقى وفيه العظات وفيه الدرر

وفيه أرق النشيد حكى أرق النسيم سرى في السحر

تنشقت منه عبير الورود ونشر الخزام ونفح الزهر

وطالعت فيه رواء الربيع وما في الخريف سبى من صور

سجاياك تلك حلت واللسان يقصر مهما عليها شكر

إذا ما شقيت بخدمة شعب تريه الوفا ويريك البطر

وتصبر صبر الكريم الحليم فما أنت أول حر صبر

صرخنا إلى أن يئسنا كمن يُخاطب حتى يلين الحجر

ومن غرَّه مظهر في الورى   فإنِّي أرى دونه ما استتر
مدالسة ورياءٌ هناك   وما اغترَّ من علَّمته العبر
فما زال للنعرات النفوذ   هي المبتدا عندهم والخبر
وليس لأهلية المرء بل   لمذهبه كان لفت النظر
وقد عجز العلم أن يقهر الـ   ـخرافات فيهم فيمن قهر
يعيشون بالزي في عصرهم   وأفكارهم في زمان غبر
ومن زاد بذخًا بتهريجه   فذاك هو السيد المعتبر
ترى ما يسوءك أنَّى التفتَّ   وأما المسرُّ ففيما ندر
قبورٌ مكلسة نتنها   توارى وزخرفها قد ظهر
فلا أمل منهم يُرتجى   فسلم رجاك لأمر القدر
عسى بعد أن يتولى القديم   يحقق في مقبل منتظر
ويعتدل الغصن لكن إذا   غدا حطبًا وشددت انكسر

١٩٤٩

واد وواد

(إلى الصديق الشاعر إلياس عساف صليبا ردًّا على قصيدة ودية كريمة.)

للفن قدرت شعرك الهادي ... وودك المزدري بإضدادي
وليس بي نقمة على أحد ... فالكل عندي مثال أولادي
وعظتهم مخلصًا فما اتعظوا ... وأوقعوا في شباك صياد
من كل غر أو سائس أشر ... يشقى شعوبًا بوهم أفراد
وعدت في نخوة أذكرهم ... فأعلنوا جاحدين إلحادي
يا ليتني مخطئ، وليتهمو ... قد أحرزوا ما يسر نقادي
فما أبالي إلا بعزتهم ... ولا أعاني من قدح حسادي
إذا انطوى خاطري على وطني ... فذاك حبي تراث أجدادي
وليس كرهًا لغيره أبدًا ... وأي كره لعاشق (الضاد)؟
صدقت! أني أعيش محترقًا ... لهم بواد، والجمع في واد
كأنَّهم أشرفوا على زمن ... ماض، وليسوا بعهد رواد
كأنَّما (الذرة) التي انفجرت ... ليست بدنيا لهم بمرصاد
كأنَّما جعجعات طائشهم ... هزائم ألحقت بقواد
وا لهفتي إذ غدت معاقلهم ... نهبًا، وكانت أعز أطواد
وا لهفتي حين من يخاتلهم ... يدنى ويُقصى المقوم الفادي
بل لا يصير الذي يبصرهم ... إلا شهيدًا لنار أحقاد
هيهات أن يبعثوا بضلَّتهم ... وهم مطايا تذل للحادي

وهم ضحايا أبت جهالتهم أن يستعادوا من كف بدَّاد
لعلَّ أحرارهم سواسيةً يحيون يومًا لثأر أنداد
وعلَّ يومًا به تحرُّرهم يحين سمحًا بغير ميعاد!

١٩٤٩

كابوس نائب

الرسم للفنان الفرنسي دوميه

أفاق من النوم مستنجدا   كمن حاصرته جيوش العدى
فصاحت به زوجه الواجفهْ   وقد أوقظت فجأة خائفهْ
«أجبني، أجبني! ماذا دهاك؟   وماذا يروعك؟ ماذا احتواك؟»
فقال: «حلمت بأني مريض!   وأنَّ جناحي كسير مهيض!»
فقالت: «هنيئًا بهذا السقام   فلولاه ما نلت هذا المقام
ومن قال إنك حر معافى؟   فلو كنت عاداك كل وجافى!
فنم ملء جفنك نوم البريء   كأنك طفلٌ غريرٌ هنيء
وطوبى لكابوسك المستهام   بك الليل دون جميع الأنام
لعلَّ بذلك فألًا جميلًا   وحظَّين أن تطلبا المستحيلا
لعلك تبلغ دست الوزارة   فخل اعتلالك دومًا شعاره!
وإياك تبدو رشيدًا صحيحا   فتغدو طريدًا شقيًّا جريحا!
كذلك شأن الورى والحياه   بدنيا تدين بذل الجباه
وما الثائر الحر فيها السعيد   ولكنه في عداد العبيد!
فنم يا حبيبي بغير اكتراث   ستفنى النسور ويبقى البغاث!»
فنام وغط غطيط البعير   ورنَّ النخير، وطنَّ الشخير!

١٩٤٩



كابوس نائب.

تقديس الفن

مهداة إلى الأستاذين الفنانين أدهم وسيف وانلي وإلى مدرستهما الفنية بثغر الإسكندرية.

في سنة ١٩٠٧م لوحظ طفل يزور المتحف البريطاني بمدينة لندن تكرارًا، واضعًا في كل زيارة باقة من الأزهار عند قاعدة تمثال إغريقي أحبه، وسرعان ما كان الحارس يزيلها متذمرًا من إصرار هذا الطفل المقدس للفن.[١]

كالطفل أهدى إلى التمثال أزهاره — فقدس (الفن) معناه وآثاره
والنَّاس تعجب منه وهو مغتبط — وليس يَسأم بالقربان تكراره
وحارس (الفن) مزهوًّا بمتحفه — يزيلها آبيًا للطفل إصراره
ترى ولائي للذكرى يُمجدها — قلبي، ويمنحها حبي وأزهاره
وأي ذكرى تناجي (النيل) إن كملت — فاتت مآثركم يومًا وأنواره؟
ولم تقبل جمالًا في مفاتنكم — ملء الفؤاد، وطيفًا مخلصًا زاره؟
إن أنس لا أنس أعيادًا لنا سلفت — في (معبد الفن) نُسقى منه أسراره
في كل يوم أناجيها وأعبدها — فكيف حين تهيج اليوم تذكاره؟
وافت رسائلكم جذابةً صورًا — والمرء يظهر فيما صاغ واختاره
فأي شعر يُحاكي بعض رونقها — إذا صببت فؤادي اليوم أشعاره

---

[١] مجلة «أكاديمي» بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٧م.

وأيُّ زهـرٍ حـريٌّ أن يـكـرمـهـا   وأن يـغـازلـهـا إن بـث عـطَّـاره؟
سـأسـتـقـلّ بـتـقـديـسـي روائـعـكـم   كذلك الطفل إذ لم يلقَ أنصاره
والـفـن لـيـس مـن الـدهـمـاء قـوتـه   إن فات من حكماء الشعب أوتاره

١٩٤٩

إرتريا الجديدة

تحية ونشيد

إرتريا إرتريا! إلى الأمام سيري!
لا تذعني لدنيا تعنو إلى القدير!

* * *

توحدي وضمي أبناءك الأحرارا
ولتحفظي كالأم ولاءهم شعارا
بالعلم ثم العلم والخُلق ثم الخلْقِ
سيري مسير النجم في عالم للحق
ولتبدعي الجنانا والنور والعرفانا
فترفعي الأوطانا وتسعدي الإنسانا
لا يرهب المحالا إلا الضعيف الواهي
فلتركبي الأهوالا إنْ شئت أن تباهي
لا فخر بالجدود مهما سموا وسادوا
الفخر أن تجيدي ودأبك السدادُ

يا بنت (نهر القاش)[1] يا أخت (مصر) الصغرى
ما كنت للنجاشي والعصر يُسمي الحرا
بل أنت في العصور من أنت عند شعبك
مفدية بالحور[2] والكلُّ رهن حبِّك

* * *

إرتريا إرتريا! إلى الأمام سيري!
لا تذعني لدنيا تعنو إلى القدير!

١٩٤٩

[1] أحد فروع (النيل) الصغرى.

[2] إشارة أيضًا إلى أسطورة الفداء والقربان (للنيل) عند قدماء المصريين.

الواحة والهجير

(ردٌّ على كتاب من الصديق الشاعر نعمه الحاج.)

إلى الأديب أديب النفس والخلق — الشاعر الفذ في لحن وفي عبق
شكري لودٍّ كريمٍ لست أعهده — إلا بأنداء زاهي الفجر والشفق
وفي (الطبيعة) في شتى مفاتنها — تحنو عليَّ حنو الأم في قلقي
غناء في صمتها أضعاف ما نطقت — أنغام صدَّاحها بالحب والحرق
تشربت روحها روحي وجاوبها — قلبي وذهني بإيماني ومعتنقي
كذا كتابك إذ وافى بجنته — مجلى من اللطف للألباب والحدق
والنَّاس بين حقير في مداركه — وبين عانٍ من الأحقاد مختنق
لا يغنم الحرُّ إذ يشقى ليسعدهم — إلَّا ضروبًا من التجريح والحمق
أهلًا بحبك واساني وأسعدني — في عالمٍ عاثرٍ بالمين والملقٍ
كأنني واحة يودي الهجير بها — وودك المحض صوب العارض الغدق

١٩٤٩

رجع الصدى

(جواب الصديق الشاعر نعمه الحاج.)

أهـلًا بـطـلـعـة بـنـت الـفـجـر والألـق … تزري بطلعة ذات الحلي والحلق

تـعـزي لأحـمـد أنـفـاسًـا مـطـيـبـةً … ورد الربيع ونشر المسك في العبق

يا مرسل الشعر نفث السحر منطلقًا … تركتني ولساني غير منطلق

من بحر فضلك وافتني بمؤتلق … وقلدتني — فناءت بالثنا عنقي

ذي منةٌ يا شقيق الروح منك إذا … ضاق اللسان بها فالقلب لم يضق

أن تشكر الودَّ — فضلٌ قد سبقت به … لكن على الفضل شكري غير مستبق

حسناء روحك في مرآتها نظرت … لمَّا رأت ما استحبت فيَّ من خلق

وكنت أولى بهذا الشكر منك لذا … إليك أرجعه قلبًا على طبق

قلبًا يعيد الولا ضعفيه متشحًا … من الوفاء بثوب نزهة الحدق

دع الأنام ولا تنزل لحمأتهم … هم في الحضيض وأنت البدر في الأفق

جاء المسيح وجاء الأنبياء ولم … تجهل أولئك ما لاقوا وذاك لقي

فاسبح بروحك في جو القريض وعش … للفن في عالم ما فيه غير نقي

١٩٤٩

النكبة

لم يهزم الناس في حرب مع الناس
بل في حروب الهوى والبؤس واليأس

ليس الصياح بمجد في مآتمكم
بل التحرر من عجز وأرجاس

ولا المباهاة بالتاريخ تسعفكم
إذا قنعتم بأوهام ووسواس

همُّوا بني أمتي! هموا! فنكبتكم
ليست سوى وزر أخلاق وسواس

همُّوا ولا تتركوا من باعكم سفهًا
يختال مصطنعًا للحذق والباس

هيهات ما عصرنا الذريُّ منصفكم
مع الخنوع لعبدان وأنجاس

هيهات يسلم إلا كلُّ ذي شره
للعلم يسعفه في دعم آساسِ

ما للتناسي المآسي، وهو علتكم
لم يخلق النصر للمستهتر الناسي

ولا لمن حظه ترديد جعجعة
ومن يعيش على خوف وإفلاس

همُّوا! فليس الغد المأمول خاذلكم
في رجع عزتكم أو دفع إيجاس

همُّوا لبنيان مجد من عظائمكم
تصونه قبل أجناد وأحراس!

فالحق أضيع في أيدٍ تُداعبه
بين الغرور وبين اللهو والكاس

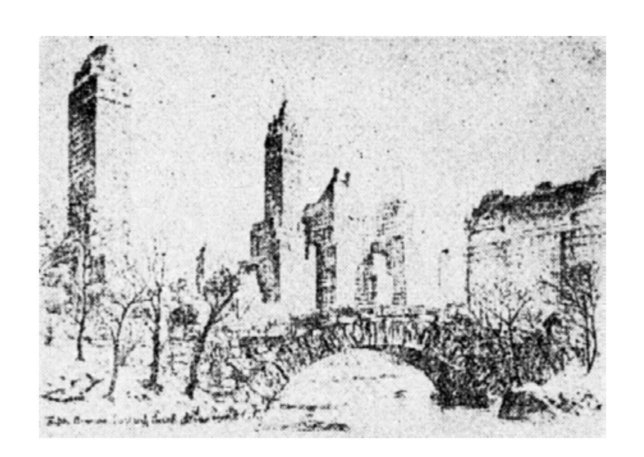
والحق أثبت في أيدٍ تقدسه
ولا تساوم فيه أي إحساس

إن كان نصحي لكم قد ساء أحمقكم
فليس غير شعوري الملهم الآسي

ما كنت أبغض خيرًا سوف يشملنا
لو صح، لكن سئمت الحق في النَّاس

وجريهم خلف أوهام مزوَّقة
جنت عليهم، فماتوا ميتة الياس!

١٩٤٩



نيويورك

نسيتُ الجنان وسكانها ومن ألهموا الشعر إيمانها
وآثرت عاصمةً للكفاح وقد زانها منه ما زانها
كفاح التنافس في الخالدات تخذن الشوامخ عنوانها
وقدَّسن مسترسلًا في الطموح أجاد، وأعلين إنسانها
تلألأ فيها ضمير الوجود وإنْ سوَّد الدهر جدرانها
فللدين فيها مكان الخشوع وإن زعموا المال ديَّانها
وللعلم فيها حياة الجموع وإن حسبوا اللهو ميزانها
وللطب آياته في سطوع تضاعف بالشيب شبانها
وللفن منزلة في الذيوع كأنَّ الهواء الذي صانها
وللهو غايته في الشيوع ولكن ليسعد سكانها
سمت بمتاحفها الغاليات قرونًا تكرر أقرانها
وشتَّى معابدها الحاليات ترتل للسلم ألحانها
وأبقى معاهدها المعجزات جعلن الحقيقة أوطانها
وأقوى معاملها الخالقات غرائب جاوزن حسبانها
وأزهى مسارحها الفاتنات بهرن الفنون وفنانها
سعدت بها رغم هذا الكفاح ولولاه كنت كمن خانها
فأصبحت عاشقها المستعزَّ بها والمرتل فرقانها
أغني لها صلوات الشكور رأى في المصاعب إحسانها

وأمشي على الطرق الصاخبات　　فخورًا أنافس سلطانها
وأهوى حدائقها الحالمات　　قصائد زيَّنَّ ديوانها
كأنَّ السناجيب[1] أطفالها　　جعلن الأراجيح أغصانها
كأنَّ الغرانيت في أرضها　　صوامع حجبن رهبانها
معابد لا معبد للجمال　　يمس المطوف أركانها
ومن حولها العشب جم الرفيف　　يجاوب بالعطف تحنانها
كأنَّ الأزاهر يقظانة　　ملائك تحرس كثبانها
كأن الجنادب في شدوها　　ندامى تسامر ندمانها
كأنَّ الطيور بتغريدها　　تلقن للشعر أوزانها
كأنَّ الأشعة رسل (الطبيعة)　　تحمل للنبت ألوانها
وتضفي على الصخر تحنانها　　وتلقي على الماء نشوانها
أطوف بها لاهيًا ضاحكًا　　كأنِّي منتهب حانها
وإنْ كان صفوي الذي لا يمل　　عبادة من عزَّ أوثانها
ومن للوحوش بأقفاصها　　رآى إخوةً أسعدوا شأنها
فما زأرت مرة في شجًى　　ولا عرف الهمُّ خرسانها
وما شمخت ناطحات السحاب　　على السفن تمخر خلجانها
وإن سكنت فوق قطر تسير　　شياطين نافسن شيطانها
تسير بجوف الثرى كالبروق　　وقد تتجاوز إمكانها
حياة تكرر فيها الحياة　　وهيهات نقدر أثمانها
وعمرٌ تجاوز عمر السنين　　ودين تشرَّب أديانها

١٩٤٩

[1] جمع السنجاب.

اللاجئون

خُرسٌ فمن عن ويلهم يتكلَّم؟ ومعذَّبون لهم تقام جهنَّمُ
جنت السياسة مثلما جنت الوغى والظالمون الغاشمون عليهمو
وتشردوا لا يملكون وجودهم لو كان يمتلك الوجود المبهم
ضاعت معاقلهم، وضاعت قبلها أممٌ، وهان معززٌ ومنعَّمُ
ليس المقام مقام لوم شامل ولعل أول من يلامُ اللوَّمُ
إنَّ المقام مقامُ نبلٍ سابغٍ حتى يُغاث من الفناء المعدمُ[1]
إنَّ المصيبة لا مثيل لرزئها فيما روى التاريخ أو ما يُعلمُ
ليفتت الجلمود من أهوالها ويدوم البحر الذي يسترحمُ
وتشقُّ أطباق السماء مناحةً والرعد في جبروته يتهدمُ
والنَّاس ... ما للنَّاس لم يتأثروا والأهل ... ما للأهل لم يتندموا
إنَّ الكوارث مفصحات حولهم تتطلب الأنجاد حين تلعثموا
هذا أوان التضحيات فما لهم ضنوا بأوهى الواجبات وأحجموا؟
المال مهما جل ليس ضريبة تؤبى إذا ما هان للحر الدَّمُ
وإذا تخاذلت الشعوب وأنكرت من هم عماد حياتها لو تفهم
فمن المحال لهم، وذلك حالها بعثٌ ولو عاد النبيُّ الملهمُ!

١٩٤٩

[1] المعدم: المسلوب الحياة.

عيسى

واهب الحب والجمال

يا مُعلن (الحقِّ)! لم يُنصفك من جهلوا   سيَّان لاسمك أو لله يُبتهلُ!

نورٌ من الله، ما ألهمتنا قبسٌ   من الإله وما أسقيتنا نَهلُ

لُدنا بحبك في الآلام طاغيةً   وفي المآسي التي قد عقَّها الأملُ

كما دعوناك في الجلَّى[1] لترشدنا   إلى الصواب إذا ما حفَّنا الزللُ

ألست إلهام هذا الكون أجمعه   ومظهر الخير في الدنيا لمن عقلوا؟

ألست من حمل الآلام قاطبةً   عن الأنام، وفدَّاهم وإن جهلوا؟

لكل دين نبيٌّ يُستغاث به   وأنت للنَّاس والأديان من أملوا

يا صاحب المعجزات اليوم ما برحت   بالمعجزات مآسي الناس تحتملُ

إنَّا نناجيك، لا ينتابنا مللٌ   وكيف ينتابنا في حُبِّنا مللُ؟

ونفتديك، وإن فديتنا سلفًا   بصون مبدئك الأسمى ونحتفلُ

المُسلم الحقُّ لا يألو[2] تشوقه   وعنده أنت أنت الفاتح البطلُ

هيهات يفتعل الإيمان مذهبه   لو أن إيمان جُلِّ الناس مفتعلُ

---

[1] الجلَّى: الأمر الشديد والخطب العظيم.

[2] يألو: يقصر ويبطئ.

مرَّت عصورٌ أمامي كنت أعرضها ومرَّ خلقٌ، ومرَّ النجح والفشلُ
وكلُّ ما ملك الإنسان مبتدعًا وكل جهد وعت أيامه الأول
فلم أجد بينها «عهدًا»[3] أعزَّ سنًى مما وهبت، ولو قامت به الدول
يا واهب الحب دينًا والجمال غنى لولاهما شاهت الدنيا لمن كمُلوا
إذا تذبذب من عدُّوك فاديهم فما تذبذب لي قولٌ ولا عملُ!

١٩٤٩

[3] عهدًا: ميثاقًا.

شجرة عيد الميلاد

أخت السلام! ربيبة الأعياد! طرحوك طرح نفايةٍ وبَداد[1]
لم يمهلوك كأنَّ عرسك لم يكن عرسًا، وحليك كان رمز حداد
وعرفت قارعة الطريق مباءةً بعد الخشوع وفرحة العبَّاد
كم حاصروك مهنئين وأنشدوا سورًا، وكم خصوك بالميلاد
وتباركوا بك خاشعين، فما لهم نبذوك نبذ ضلالة وفساد؟
وكأنَّما لم تبقَ للذكرى يدٌ سلفت، ولم تمدد إليك أيادي
تطأ النعال من الفروع حزينةً كانت معارض زخرف ميَّاد
ويعافها الكلبُ الذي بوفائه ضُرب المثالُ، ويستهين العادي
فتسُامُ من بعد المهانة والأذى نارًا، كأنَّ بها وباء عباد!

* * *

أحييت ميلاد (المسيح) وبعده كنت الضحية للمسيح الفادي

١٩٤٩

[1] البداد: الفضلات المنبوذة.

الصعود

أسفًا، أعودُ إلى (السَّماء) كما أتيتُ بنبع فنِّي
لم ألق في دنيا الأنام سوى المهازل والتجني
دنيا تقومُ على الدماء وبالدماء هوًى تغنِّي
وتدورُ طاحنةً عقول النابهين وأيَّ طحن
ويسوسها البلهاء من غبن تعانيه لغبن
ومن الخراب يهزُّها هزًّا إلى ضغن وضغن
(الأرض) كم شقيت بهم كشقاء موتور بأين[1]
وهبت لهم أسنى الكنوز فكافئوها بالتدني
صلبوا (المسيح) وشردوا الأحرار بين الخافقين
وحياتهم نقض الحياة تسامُ في شك ومين
كم أولعوا بالهدم والهدام لا يسمو ليبني
وَلَوَ انَّهم عقلوا جنوا من نارهم جنَّات عدن
فإلى (السماء) أعودُ لم يُغن التأني والتمنِّي
فحروبها أجدى وأوفى (للحياة) وكل فنِّ
وسلامها أبقى وأنقى للوجود المطمئنِّ

[1] الموتور: من قُتل له قتيل فلم يدركه بدمه. والأين: الإعياء.

إن تـعـتـبـر مـنـفـاي فـالـمـنـفـى أبـرٌّ إذن بـذهـنـي
ولعلَّ أمِّي (الأرض) في الحالين في ذهني وعيني!

١٩٤٩